صاحبها ورئيس تحريرها
مدحة عكاش
MADHAT AKKACHE

الثقافة

مجلة ثقافية ادبية تصدر في دمشق
دمشق ـ ص.ب (٢٥٧٠) هاتف ٢٢٩٩٨٤

تشرين الثاني
١٩٧٥
ملحق العدد ٤٦

تحية الى المغرب الحبيب



في النصف الاخير من الشهر الفائت ، فتحت مدينة الرباط عاصمة المغرب الحبيب صدرها الرحب الواسع ، لتستقبل ادباء العربية الوافدين وأي استقبال كان ؟ انه استقبال العربي الاصيل لاخيه العربي الاصيل ، تجلى فيه نبل المغربيين وكرمهم واخلاصهم للعرب وللكلمة العربية . كان ذلك لتكريم الشاعر العربي ابن زيدون ، ولتكريم الادباء الوافدين أنفسهم .

لقد أدى المهرجان غايته المنشودة بلقاء الادباء والاطلاع على ما أعدوه لهذا المهرجان برغم الظروف السياسية التي أحاطت بالمغرب الحبيب ، وقد اعتزم استرجاع حقه في صحرائه . وكان لطباعة المحاضرات وتهيئتها وتوزيعها على المؤتمرين ما كفل تأمين الغاية المرجوة .

واذا عمدت مجلة الثقافة اليوم الى اصدار هذا العدد الخاص بابن زيدون ومهرجان الرباط ، فما ذلك الا بعض الوفاء لهذا القطر العربي الشقيق واستكمالا لظاهرة تكريم الادب والادباء واذا ضاقت صفحات هذا العدد عن استيعاب ما يجب أن ينشر ، فلنا في الاعداد القابلة متسع لنشر المحاضرات كافة .

فللمغرب الحبيب الشكر والتقدير ملكا وحكومة وشعبا ، وللسيد محمد أبا حنيني وزير الدولة لشؤون الثقافة والمسؤولين في وزارته وافر الاحترام ، ولادباء المغرب تحية من القلب .

رئيس التحرير

الايقاع الموسيقي في شعر ابن زيدون

بقلم الدكتور شوقي ضيف

– ١ –

الموسيقى اساسية في كل شعر ، فهي جوهره ولبه ، وبدونها لا يكون الشعر شعرا ، اذ هي ركنه الذي لا يقوم بدونه ، وهي ركن قديم قدم الحياة الانسانية ، فمنذ وجد الشعر وجدت معه موسيقاه ، بل هو انما تخلق في احشائها ، ولم يتخلق وحده بل تخلقت معه النغمة ايضا ، فقد كان لسان آبائنا الاولين أشبه بمحيط متجمد ، من الصعب أن تسيل عليه الالفاظ فضلا عن الاشعار ، فلجأ الانسان الى الصياح بأصوات مبهمة ، يريد أن يذيب هذا المحيط أو جوانب منه ، ومع الزمن أخذت هذه الاصوات تتحول الى مقاطع ، ومضى الانسان في دأبه يصيح صياحا عاليا حتى تحولت المقاطع الى الفاظ يعبر بها عن الاشياء المحسوسة في الطبيعة ، وظل يجد صعوبة هائلة في التعبير عن أحاسيسه ومشاعره ، فعمد الى الصياح والهتاف يشركهما في التعبير عن خواطره ، وارتقى بهما فنونا من الرقي في آماد متطاولة من الزمن ، واذا هو يتحول بالهتاف والصياح في التعبير عن خواطره الى نظام موسيقي ، ما زال يتدرج به حتى اعطاه شكلا كاملا ، وهو نظام أراد به من جهة أن يستتم تعبيره الوجداني ، ومن جهة ثانية ان يقتطع لنفسه من مجرى الزمن لحظات وجدانية خالدة ممتعة ، لا نكاد نلم بها حتى تخرجنا من عالمنا الحاضر الى عالم حالم ، ومرد ذلك اننا نعيش في حياتنا اليومية معيشة نفسية لا يسودها أي نسق او نظام ، بل تسودها الفوضى اذ تموج دخائلنا بما لا يكاد يحصى من الخواطر والخوالج والنزعات والرغبات المتباينة الجامحة ، حتى اذا استمعنا الى قصيدة او مقطوعة شعرية أحسسنا كأن قيثارة نفوسنا في الداخل يعود الى اوتارها نظامها ، فلا جموح ولا تباين ولا فوضى ، بل تنسيق وتساوق لمشاعرنا وخوالجنا ، وكأنما أعيد تكويننا النفسي الداخلي اعادة جديدة ، فلم نعد نشعر بما كانت تعج به نفوسنا من لغط النوازع والدوافع المشوشة ، بل اختفى كل لغط واختفت كل فوضى لغرائزنا وميولنا وأهوائنا الباطنة ، وعم تساوق وتآلف عجيبان ، هما مصدر شعورنا بالمتعة حين نقرأ الشعر او نستمع اليه .

وبمقدار هذا التساوق والتآلف وما يتضمنانه من نسب النغم يكون تأثير الشعر في نفوسنا قوة وضعفا ، فاذا تكاملت هذه النسب قوي تنسيقها لحياتنا النفسية الداخلية ونوازعها ورغباتها ، وأحسسنا كأن نفوسنا خلت من كل تشويش وكل اضطراب وفوضى ، وعادت الى فطرتها السوية التي تتآلف فيها تلك الرغبات والنوازع بقسطاس مستقيم ، يمنع بعضها أن يطغى على بعض ، اما اذا ضعفت نسب التآلف والتساوق النغمي فسرعان ما تدب الفوضى ويدب التشويش ثانية الى نوازعنا ورغائبنا وخوالجنا ، اذ سرعان ما يبغي بعضها على بعض ، وسرعان ما تمتنع على التناسق وسرعان ما نعود الى الاتصال بحياتنا اليومية وترهاتها ونوازعها الجامحة وغير الجامحة ، فقد حرمنا في الشعر من النظام النغمي المتكامل الذي يؤثر بشذاه الموسيقي في دخائلنا تأثيرا عميقا ، تأثيرا ينقلنا من عالمنا اليومي الوقتي الى عالم جديد ، أشبه ما يكون بعالم الرؤى والاحلام ، عالم تتآلف فيه احساساتنا ومشاعرنا وغرائزنا ودوافعنا وتتجانس ويعود اليها نسقها الفطري الطبيعي .

ولعل لغة لم يتكامل فيها الايقاع الموسيقي ونسقه النغمي كما تكامل في عربيتنا العريقة ، ومعروف ان

اليونان والرومان اعتدوا في أشعارهم بالوزن ، ولكنهم لم يعرفوا نظام القافية ، وعرفه الفرنسيون في البحر الاسكندري والانجليز في بعض صور شعرهم الغنائي وهم لا يقيسون شعرهم بعدد المقاطع مثل الفرنسيين والرومان واليونان وانما يقيسونه بالمقاطع المضغوطة وشاع عندهم الشعر المرسل المتحرر من القافية، كما شاع عند الفرنسيين منذ شعرائهم الرمزيين الشعر الحر ، واذا رجعنا الى شعرنا العربي وتاريخه الطويل ، وجدنا الايقاع الموسيقي يتكامل فيه بصورة لم يعرفها الشعر الغربي على مدار أزمنته وعصوره ، فالقصيدة منه تأتلف من ابيات متحدة في الوزن والقافية في نظام نغمي مطرد ونسب لحنية محكمة ، تستوفى فيها الرنات والايقاعات استيفاء دقيقا ، وهي ايقاعات منتظمة تتكرر تقاسيمها الزمنية في كل بيت ، وتتكرر وقفاتها او قوافيها ، ومنذ العصر الجاهلي يسند هذا الايقاع الموسيقي الخارجي ايقاع داخلي يقوم على معرفة الشاعر بخواص الالفاظ وطاقتها الصوتية بحيث تصبح قصيدته وكأنها عقود متناسقة من درر الالفاظ ، حتى يبلغ ما يريد من امتاع المستمعين له بصياغة قصيدته بجانب امتاعه لهم بجمال وزنه وقافيته وايقاعاته الموسيقية المتكررة ، وبهذه الايقاعات الخارجية والداخلية المتسقة في القصيدة مضى شعراء العصر الاسلامي ينظمون اشعارهم موفرين لها كل ما يمكن من جمال صوتي ، وخلفهم شعراء العصر العباسي يوقعون أشعارهم على اوتار قيثارتها الموروثة مستخرجين منها كل ما يمكن من ألحان متساوقة رائعة ، وقد أكبوا على الصياغة الشعرية القديمة يدرسونها ويتمثلونها واستطاعوا أن يمدوا طاقتها مكونين لانفسهم صياغة مولدة جديدة شديدة الشفافية والصفاء والعذوبة ، واستحدثوا اوزان المجتث والمقتضب والمضارع كما استحدثوا المسمطات وصورا من الشعر الدوري ، ولكنهم بثوا فيها جميعا الايقاع الموسيقي الموروث ، وظلت القصيدة بمتاعها الموسيقي الهنيء مهوى افئدة الشعراء ، فألحانها المتساوقة هي التي توقع في كل مكان وعلى كل لسان بنسبها اللحنية المتسقة التامة التي تخلب الالباب، واخترع الاندلسيون الموشحات مزاوجين بين قوانى وقواف ، ولكنهم ظلوا يغذونها بايقاعات القصيدة الداخلية والخارجية ، محاولين كل ما استطاعوا ان يدلعوا فيها لهبها الموسيقي، عن طريق انتخاب الالفاظ الرشيقة الزاخرة بالعذوبة والنعومة وطريق الشطور القصيرة التي تجعلها تموج بالنغم المتدفق السريع ، وبذلك تلافت الموشحات ما سقط من ايقاعات القصيدة،ومع ذلك ظفرت بها القصيدة وايقاعاتها المنتظمة المتكاملة التي تصغي اليها الآذان والافئدة .

ـ ٢ ـ

وقد ظلت الصفوة الممتازة من شعرائنا حتى نهاية العصر العباسي لا تجنح بشعرها الى ايقاعات جديدة مستحدثة او تفكر في استحداثها فقد كانت من حدة الحس ودقة الشعور بحيث رأت التمسك الى أبعد حدود التمسك بايقاع القصيدة الموروث ونسبه وأقيسته وقسماته المتميزة التي تحتفظ له بوهجه وشرره الموسيقي ، والتي يبلغون بها كل ما يريدون من النفوذ الى قلوب الناس وعقولهم ، واقرأ في أبي نواس وأبي تمام والبحتري وابن الرومي والمتنبي وأبي العلاء فانك لن تجد عندهم اي انحراف عن الايقاع الموروث للقصيدة اذ ثبت لديهم انه هو الايقاع الذي يستحوذ على اعجاب الناس ويخلب البابهم ، لما فيه من كمال موسيقي غريب ، وبذلك ظل الشعر طوال العصر العباسي يحتفظ بهذا الايقاع الاصيل الذي يصب في كلمات البيت الشعري المتناسق ، مؤلفا بينها قرابة موسيقية لعلها أشد واوثق من قرابة ذوي الرحم ، وتبارى الشعراء الذين سميناهم وغيرهم من معاصريهم في جمال الديباجة والصياغة، حتى تزخر أشعارهم بالنصاعة والرونق والجزالة والرصانة والعذوبة والرشاقة ، واستغلوا في ذلك كل ما قرأوه في كتب النقد وفي علم التجويد ، مما يصور خصائص الكلم الصوتية وخصائص حروفها الموزعة بين مجهورة ومهموسة

وشديدة ولينة ورقيقة وغليظة ، مما تتخالف وتتباين معه رنات الكلمات والحانها ، وتحول كبار الشعراء العباسيين الى ما يشبه اصحاب الكمياء الحاذقين الذين يستطيعون أن يؤلفوا شذى عطريا فائحا من عناصر متعددة ولعل اكبر كيميائي ظهر بين الشعراء العباسيين وعرف كيف يستغل عناصر الحروف والكلم ويسوي منها موسيقى خلابة هو البحتري ، وعرف ذلك القدماء له ، فقالوا ان شعره بـه صنعة خفية ، وقالوا ان الفاظه لما تمتاز بـه من حسن « كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات ، وقد تحلين بأصناف الحلى » .

غير انهم لم يحاولوا تحليل هـذا الحسن ورده الى خصائصه الصوتية في انتخاب الكلمات ، وكل من يرجع الى اشعاره متأملا يعرف توا انه كان استاذا من أساتذة الايقاع الداخلي للشعر ، فهو يعنى أشد العناية بالتوافق الصوتي بين الحروف والكلمات ، بحيث نراه كثيرا يختار كلمات الشطر ـ وربما كلمات البيت ـ من ذوات حرف معين ، واجدا فيه لمحة من القرابة الصوتية تشتد كلمات البيت او الشطر بعضها الى بعض ، وتجعل كلا منها تقبل على أخت لها ، فالكلمات من أسرة صوتية واحدة ، ونصل الى الكلمة الاخيرة في البيت وصـولا طبيعيا ، فالقوافي محكمة ، ولا يعتريها اي نبو بل هي موضوعة بكل دقـة في مكانها السوي ، ونستطيع أن نلاحظ ذلك وغيره بمنتهى الوضوح في سينيته المشهورة :

صنت نفسـي عمـا يدنس نفسـي
وترفعت عـن جـدا كل جبس

فقد اختار لها قافية ثلاثية وعمم ذلك فيها ، حتى يكون انزلاقها على السنتنا سهلا ، وحتى نشعر بخفتهـا ورشاقتها ، ولاحظ السين التي يختم بها القافية ، فأكثر من الكلمات السينية داخل أبياته ، حتى يصل بينها وبـين القافية وصلا قويا بحيث تتجاذب الكلمات وكأنها تعقـد الخناصر ، ولاحظ أن روى الابيات مكسور ، فاكثر من حركات الكسر في الكلمات السابقة له في البيت ، طلبـا للمجانسة بينها وبين القافية ، واضاف الى ذلك في الابيات تقطيعا تصوتية كثيرة ، كما أضاف موازنات في العبارات لا تكاد تحصى ، كل ذلك كي يستتم في القصيدة كل مـا يستطيع من تناغم ، وهو تناغم يرى في صور كثيرة ، فـي الحركات والسكنات وفي الحروف والكلمات وفي التقطيعات والمقابلات ، وحتى ثلاثية القافية وانها مؤلفة من ثلاثـة حروف جعلته يختار كثيرا من كلمات البيت ثلاثية الحروف ايضا بدورها ، حتى تتلائم هذه الثلاثية المشتركة بين قافية البيت والكلمات تلاؤما محكما وثيقا ، وليس هذا كل ما يلاحظ عند البحتري من نفوذه الى الايقاع الصوتي الداخلي البديع ، فقد كان ينفذ اليه بصور كثـيرة من الطبقات والتقسيمات الصوتية ومن المشاكلة بين الاوزان من جهة والالفاظ والمعاني من جهة ثانية ، مما جعـل معاصريه ومن جاءوا بعدهم من النقاد يفتتنون فتنة شديدة ، وهو شعر وقعه على نفس قيثارته العتيقة ، ولكنه استطاع أن يستخرج منها اصواتا ساحرة ، تشفي القلوب والنفوس .

وكان البحتري وضع امام النقاد والشعراء حقيقة لعبت ـ ولا تزال تلعب ـ دورا كبيرا في تاريخ شعرنا ، وهي انه ليس العيب في القيثارة الموروثـة ولكن فيمن يوقعون عليها ، آمن بذلك البحتري وغيره من شعراء العصر العباسي العظام ، فلم يحاولوا تغييرها ولا ادخـال أوتار جديدة عليها ، واستطاع كل منهم أن يستخرج لنفسه منها موسيقاه التي تميزه كما تميز مهارته في استخدام العناصر الصوتية عناصر الكلمات والحروف والحركات والتقطيعات واستغلال نسبها واقيستها النغمية ، وفي اثناء ذلك ظهرت المسمطات ولكنهم لم يقبلوا عليها ، وظهرت في أقصى الغرب في الاندلس الموشحات ، وفي رأينا انها تولدت من المسمطات التي تتألف من ادوار ، وينتهي كل دور بشطر يتحـد في رويه مع مثيله في جميع الادوار ، في حين يختلف الروي في شطور كل دور تسبقه ، وكأن الموشحات انمـا عددت

الشطر الذي تختم به ادوار المسمطات ، وسمت ذلك اقفالا بينما سمت ما قبله غصونا ، ويفترق ايقاع الموشحات عن الايقاع الموسيقي الموروث في تعدد قوافيه ، ولكن فكرة الشطور لا تزال قائمة فيه ، ولا يزال يلتحم بالايقاع القديم في انتخاب الالفاظ وتناسق الحروف والحركات والتقطيعات ، مما يحدث فيها تجاذبا وتشابكا واستواء موسيقيا دون أي عوج او انحراف ، بل مع الرشاقة والعذوبة ، وبذلك يتصل ايقاع الموشحات بايقاعهاالشعري الموروث ، ويتغذى منه غذاء حيا خصبا مثمرا ، ومن هنا أمكن بقاؤها وخلودها وشاعت وانتشرت في البلدان العربية ، لانها وجدت فيها نفس الرحيق الموسيقي الذي يمتاز به ايقاعها الموسيقي القديم اذ تولدت منه كما يتولد الجدول من النهر الفياض والغصن من الشجرة الكبيرة ٠

ـ ٣ ـ

وقد يكون من الطريف أن ندرس الايقاع الشعري عند علم من اعلام الشعر الاندلسي هو ابن زيدون القرشي المخزومي الذي اشتهر بحبه لولادة بنت الخليفة المستكفي، وكانت أديبة شاعرة وجميلة خلابة ، واتخذت لنفسها في قرطبة ندوة ، كان يختلف اليها بعض الشعراء والكتاب ، ويختلف اليها معهم ابن زيدون ، وأحبها ، وبادلته كما يقول الرواة حبا بحب ، ثم أخذت تجفوه ، حتى استشعر منها اليأس الى الابد ، وشعره فيها يمثل هذه المراحل الثلاث ، مرحلة يصور فيها سعادته بالحب ، ومرحلة يصور فيها شقاءه بالجفوة ٠ ثم مرحلة يصور فيها يأسه القاتل، ونراه في هذا الغزل كله ، وخاصة في المرحلتين الاخيرتين يستمد من غزل عشاق العرب ، وما بثوا فيه من لوعة وحرقة مضنية ، وحنين دائب لا ينفذ معينه ، ونراه منذ تفتحت موهبته الشعرية يوقع اشعاره على قيثارة الشعر العربي العتيقة ، وهدته شاعريته الى ان يتخذ من البحتري استاذا له ، مما جعله يعنى أشد العناية بانغامه والحانه، وتصادف انهما تشابها فيتجربة الحب ، فقد أحب البحتري في شبابه علوة مواطنته الحلبية ، وبادلته مودة بمودة ، ثم جفته وسلت عنه الى الابد ، كما سلت ولادة عن ابن زيدون ، وظلت ذكرى علوة لا تبرح خيال البحتري ، وظل يهديها غزلياته باثا فيها حبه ويأسه وحنينه الظامىء الى لقائها ، تارة يفرد لذلك بعض المقطوعات ، وتارة يضمن حبه مقدمات قصائده ، بالضبط كما صنع ابن زيدون وهو بقرطبة وبعد ان بارحها الى اشبيلية وغيرها من مدن الاندلس ، وعلى هذا النحو تشابهت تجربة البحتري وابن زيدون في الحب ، واهم من ذلك ان ابن زيدون اصطفاه واصطفى ايقاعه الموسيقي لنفسه ، ولاحظ ذلك معاصروه، فسموه بحتري الاندلس ، اذ مضى ينهل من ينابيع شعره الموسيقية ، متمثلا لها أروع ما يكون التمثل ، حتى لكأنما بعث البحتري من جديد ، او لكأنما عثر على نفس قيثارته، واذا هي تمده بنفس الالحان ونفس الانغام ، ويعود القدماء مرارا الىبيان العلاقةالوثيقة بينالشاعرين ملاحظين أن ابن زيدون أخذ من البحتري في بعض ابياته هذا المعنى أو ذاك ٠ ولاحظوا ـ فيما لاحظوا ـ ان قلادة ابن زيدون الكبرى :

اضحى الثنائي بديلا من تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا

انما نظمها على نمط قصيدة البحتري :

يكاد عاذلنا في الحب يغرينا
فما لجاجك في لوم المحبينا

وهي ملاحظة صحيحة ، غير انها لا تنقص يتيمة ابن زيدون الفريدة شيئا من روعتها الادبية ، اذ استطاع فيها أن يحلق باجنحته الشعرية في آفاق الشعر العليا تحليقا ، لعل شاعرا لم يستطع بعده أن يرتفع باجنحته الى السمت الذي حلق فيه ، وهيتعد بحق آية من آيات الشعر العربي وآيات الغزل فيه خاصة ، لما بث فيها من حنين ظامىء لا تنطفىء جذوته ، ونفس قصيدة البحتري الآنفة الذكر لا يترقرق فيها الحنين بهذه القوة ، والحنين قديم في الشعر

العربي منذ العصر الجاهلي ، ولكن شاعرا لم يبلغ من تصويره ما بلغه ابن زيدون في قصيدته ، وكأنما تجمعت في صدره كل أشعار الحنين التي قرأها للبحتري وغير البحتري من سابقيه وخالفيه ، ممن حنوا الى ديار ليلى وغير ليلى ، وشعروا لمحبوباتهم بوجد ما بعده وجد ، واشتاقوا لرؤيتهن شوقا لا يفوقه شيء ، وامتزج في نفوسهم اليأس من لقائهن بالامل ، اليأس المرير بالامل الحلو ، وهن يصددن عنهم وهم لا يسلون ، بل يزدادون بهن تعلقا وشغفا ، ويتعذبون عذابا شديدا ، ويتناول ابن زيدون من البحتري المعذب قبله قيثارته ليتغنى عليها حنينه وحب قلبه الملتاع ، نافذا في تضاعيف ذلك الى نغمات وارنانات تكمل تعبيره وتصويره لمأساته ومحنته ، فقد ضاع منه نعيم التداني كما قال في مطلع قصيدته ، الى الابد ، وسقط في جحيم التنائي ، ولم يعد يسعد بصفو اللقاء ، بل أخذ يصطلي بنار الجفاء المحرق ، وكلمات التنائي والتداني والتجافي تتقابل في البيت ، وكأنما يتشابك ايقاعها تشابك الايقاع في حركات الرقص ، ويمضي باكيا :

ان الزمان الـذي ما زال يضحكنـا
انسـا بقربهم قد عاد يبكينـا

وانحـل ما كان معقودا بانفسنا
وانبت ما كان موصولا بايدينا

وقد نكون ومـا نخشى تفرقنـا
فاليوم نحن ومـا يرجى تلاقينـا

وكل شطر من شطور هذه الابيات الثلاثة يقبل على تاليه ، فيضحك في الشطر الاول ، ويبكي في الشطر الثاني والشطران في البيت الثاني يتحدان في عدد الحروف وحركاتها وسكناتها ، وكأن الكلمات في الشطرين تقوم على صفين متقابلين ، وكل كلمة في الشطر الاول تطلب مثيلتها في النغم في الشطر الثاني ، ليتكامل لهما العزف ، ويحاول ذلك ابن زيدون في نهايتي الشطرين في البيت الثالث ، فكلمة « ومايخشى تفرقنا » في الشطر الاول تقابلها كلمة « وما يرجى تلاقينا » في الشطر الثاني ، وكأن اكتمال الاصوات في الشطور كان غاية دائمة من غايات ابن زيدون في ايقاعه الموسيقي ، حتى يبلغ من التأثير بشذا اصواته الخلابة كل ما يريد من تأثير في نفوس قرائه وسامعيه . ويذرف الدمع منشدا :

بنتم وبنـا فما ابتلت جوانحنـا
شوقا اليكم ولا جفت مـآقينـا

اذ جانب العيش طلق من تألفنـا
ومورد اللهو صاف من تصـافينا

واذ هصرنـا غصـون الوصل دانية
قطوفها فجنينـا منه ماشينا

ليسق عهدكـم عهد السرور فمـا
كنتم لارواحنا الا رياحينـا

ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنـا
من لو على البعد حيـا كان يحيينـا

والتشاكل الصوتي والقرابة واضحة بين كلمات البيت الاول ، فانه حين ذكر البلل ذكر الجفاف ، وذكر المآقي السائلة بالدموع والشوق الظامي أبدا الى محبوبته ، وهذه القرابة بين الكلمات كان يسميها القدماء مراعاة النظير ، وهي تدل بقوة على تعمق الشاعر في تصويره وما يحدث فيه من معان متقابلة تقابل الخطوط في لوحات الرسامين ، ويرتفع في البيت الثاني أمام بصره فردوسه الماضي ، ويستعين بالجناس الصوتي على تصوير هناءته فقد كانت موارد اللهو صافية بتصافي العاشقين ، ويعود في البيت الثالث الرائع الى مراعاة النظير ، فطالما أظلته هو وولادة غصون الوصل ، وطالما أمالها نحوهما يقتطفان زهرات الحب ويجتنيان ثماره اليانعة ، ويرتسم الماضي أمام بصره كانه قوس قزح البهيج ، فماذا يملك ازاءه ؟انه لا يملك الا ان يدعو في البيت الرابع دعاء متصلا لهذا العهد السعيد الذي كان يعشق باريج حبه لولادة ريحانة روحه ، والجناس واضح بين الارواح والرياحين ، وكانه لم يعد

يستطيع القرب من معاهد هذه الرياحين ، ولذلك يكتفي بما اكتفى به المحبون اليائسون من قبله ، اذ يرسلون بتحياتهم ـ مع ريح الصبا ـ الى محبوباتهم ، ويتمنى لوحيته ولادة من بعيد لتحيي آماله ، بل لتحيي روحه قبل أن يقضي عليها هذا السم الزعاف سم الهجر والجفاء، والكلمات في المقطوعة شديدة التشابك والتجاذب تارة بالجناس ، وتارة بمراعاة النظير ، ويظل في ندبه لحبه العاثر :

ياروضــــة طالمـــا اجنت لواحظنـــا
وردا جلاه الصبا غضـــا ونسرينا
ويا نعيما خطرنا من غضارته
في وشـــي نعمـى سحبنا ذيلـــه حينا
يا جنـــة الخلـــد ابدلنـــا بسلسلها
والكوثر العذب زقوما وغسلينا
كاننا لـــم نبت والوصـــل ثالثنـــا
والسعـــد قـــد غض من أجفان واشينـــا
سر ان في خـــاطر الظلمـــاء يكتمنـــا
حتى يكاد لســـان الصبح يفشينـــا

وواضح ما بين الكلمات في هذه الابيـــات من لحمة القرابة الوثيقة ، وهي لحمة تجعل الكلمات ينضم بعضها الى صدور بعض في حنو ، فالروضة في البيت الاول تضم الى صدرها الورد الغض الذي تفتحت عنه للتو اكمامـه ، كما تضم النسرين العطر ، والنعيم يتجسد في حرير منمق منقوش يخطر فيه ابن زيدون وهو ضاق عليه ، وهو يجرر اذياله ، وسرعان ماأغلقت من دونه ابواب فردوسه ،وابدل من مائة النمير الصافي وكوثره العذب السائغ الذي طالما شفى قلبه ونفسه ، ابدل من كل ذلك الجحيم ومافيه مـن الزقوم والغسلين طعامي أهل النار ، وكان حبه لم يـــكن وكانه لم ينعم بلقاء صاحبته ووصالها ليلة ولا وشاة ولاعذال وكانما كانا سرين مستودعين في خاطر الظلماء لاتبوح بهما لاحد ، وهما يتساقيان شراب الحب الصفو حتـى يرفرف من حولهما الصباح ، والبيت كالابيات قبله تتشابك فيـه الكلمات بالايدي ، فالسران الخفيـــان معهما الظلمـــاء والخاطر والكتمان ، وفي الشطر المقابل اللسان ونـــور الصباح والافشاء، وبدون ريب تحدث هذه الصور المتلاحقة من مراعاة النظير انسجاما صوتيا بديعا في موسيقى ابـــن زيدون وايقاعاتها التي تصافح الآذان ، بل التي تلذهـــا حين تستمع اليها ، كما تلذ الالسنة حين تنطق بها ، وتلذ الافئدة ، وابن زيدون لا يلائم بين الكلمات وحدها ، محدثا هذه الوشائج من القرابات ، بل يلائم ايضا بين حروفهـا وحركاتها ، وكل من يتأمل في القصيدة يلاحظ أن رويهـا نون موصولة بالالف وتكثر هذه النونات والفاتها في الابيات، كما تكثر حركات الفتح ائتلافا مع حركة الروى ، وكل ذلك يحدث التئاما قويا في الايقاع الصوتي وجرسه •

ـ ٤ ـ

وهذا النمط من التوافق بين الكلمات وحركاتهـــا وسكناتها حتى يتكامل النغم في الايقاع الموسيقي لايقـــف عند نونيته الفريدة ، بل يعم في جميع قصائده ومقطوعاته بدرجات متفاوتة ، حسب رغباته اللحنية ، وكانما كانـت له اذن داخلية تقيس الاصوات ونبراتها واهتزازاتها قياسا دقيقا ، فاذا هو يحكم ايقاعه الموسيقي الى أقصى حد، واذا قصائد ومقطوعات تتحول الى أنغام متعانقة تعانقا رشيقا ، تتعانق الكلمات وتتعانق الشطور ، على شاكلة قوله :

وغصـــن ترشـــف مـــاء الشبـــاب
ثـــراه الهـــوى وجنـــاه الامـــل
تهـــادى لطيفـــة طـــي الوشـــاح
وترنـــو ضعيفـــة كـــبر المقمـــل
وتبـــرز خلـــف حجـــاب العفـــاف
وتســـفر تحت نقـــاب الخجـــــل

وكل بيت من الابيات الثلاثة يصور لونا من الوان الانسجام الصوتي في الايقاع الموسيقي، فالبيت الاول يعتمد على وشائج الرحم بين الكلمات ، فالغصن الذي عبر بـه عن قوام صاحبته الرشيق معه الماء والثرى والجني او الثمار

ماء الشباب وثرى الهوى وثمار الامل ، كلمات تؤلف صورة مركبة بارعة ، كما تؤلف ايقاعا متناسقا ، والبيت الثاني تلتقي فيه رنة الصوت لكلمة « لطيفة طي الوشاح» برنة الصوت لكلمة « ضعيفة كر المقبل » ، وتتكامل رنة الصوت في البيت الثالث ، اذ تتآلف رنة الصوت في شطرية ، بل تتحد اتحادا تاما ، يتلاقى فيه عدد حروف الكلمات والحركات والسكنات والمدات ، تلاقيا من شأنه ان يصف الآذان لاستقبال الايقاع وانغامه واصواته ، ولم يكن ذلك غائبا عن حس ابن زيدون المرهف، فمضى بعد هذهالابيات يصور صاحبته سائرة مع لداتها قائلا :

مشين يباهين روض الربى
بيانع روض الصبا المقتبل
فمن قضب تتثنى بريح
ومن قضب تتثنى بدل
ومن زهرات تندى بمسك
ومن زهرات تندى بطل

والابيات تتعانق فيها الكلمات وتعقد الخناصر ، فروض الربى معه روض الصبا وتتثنى القضب فيالروضتين وشتان بين تثني الريح وتثني الدلال ،ويسقط الندى على الزهرات ، وشتان بين ندى المسك العطر ، ويدلع ابن زيدون بجانب ذلك لهبا في الايقاع فروض الربى تقابل في لحنها روض الصبا في البيت الاول ، وتتقابل الكلمات والانغام في شطري البيتين الثاني والثالث وكأن كل كلمة في شطر تطلب قرينتها ليتم لها التناغم في ادق صورة ونحس كأن ابن زيدون لا يؤلف شعرا فحسب ، بل من ذلك انه يؤلف أنغاما تؤثر بأثرها الموسيقى في أعصابسامعيه ، من مثل قوله :

أرخصتني من بعد ما اغليتني
وحططتني ولطالما اعليتني
هلا وقد اعلقتني شرك الهوى
عللتني بالوصل او سليتنى

وتتكامل نسب نغم الكلمات في البيتين فأرخصتني بازائها اغليتني ، وحططتني بازائها اعليتني ، واعلقتني بجانبها عللتني وسليتني ، وكل ذلك يضيف الى الايقاع الموسيقي رونقا وبهاء • وبجانب ذلك يلاحظ ابن زيدون الطباق بين ارخصتني واغليتني وبين حططتني ، وهو طباق صوتي يراد به اضافة رقة الى اللحن بجانب ما يؤدي من المعنى ولاينسى التصوير وسط هذا النغم المتلاحق ، فما أشد لذع الحب حين يقطع لحظاته الهنيئة الهجر المتصل ، والمحب الولهان لا يزال يؤمل ولا يزال ينتظر أو كما يقول ابن زيدون لا يزال يتعثر في شرك الهوى ، لا يستطيع منه افلاتا ولا خلاصا ، ويلتفت اليها ، بل يتضرع ويتوسل قائلا :

أيوحشني الزمان وأنت أنسي
ويظلم لي النهار وأنت شمسي
واغرس في محبتك الاماني
فأجني الموت من ثمرات غرسي

ويستخدم نفس الكيمياء التي مرن عليها في مزج عناصر الكلمات عن طريق مراعاة النظير والطباقات الصوتية ، فالوحشة بازائها الانس ، والظلام بازائه النهار والشمس، والغرس بازائه الجني أو القطف والثمرات والغرس ، وكل ذلك يحكم تلاقي النغم في الايقاع ، بل امتزاجه وانسجامه انسجاما يبهر السمع والقلب والعقل ، ويضيف ابن زيدون الى ذلك مفاجأة في تصويره ، فالناس يغرسون ليجنوا الثمار الحلوة وقد تكون مرة ، اما هو فقد غرس امانيه في الحب ، وجنى منها ثمرا غريبا ، هو الموت نفسه بصورته البشعة المنكرة ، فهو يحيى ولكن حياة أشبه بالموت الزؤام، وكلما قرأنا في ديوان ابن زيدون لقيتنا تصويراتهالطريفة وطباقاته الصوتيةالكثيرةورناته اللحنيةالمتكاملة التيتمسك الكلمات فيها بعضها ببعض مؤلفة اسرا متجانسة متلاحمة على نحو مانرى في قوله :

ما للمدام تديرها عيناك
فيميل فيسكر الصبا عطفاك

ولطالمـــا اعتـل النســيم فخلتــه
شـــكواي رقـت فاقتضـت شـكواك
امـا منـى نفسـي فـانت جميعهـا
يـاليتنـي اصبـحت بعض منـاك

والكلمات تتألف في البيت الاول فتفيض بنشوة موسيقية كنشوة ابن زيدون حين كانت تخدر اعصابه عينا صاحبته وحين كان كل شيء فيها ينشر النشوة من حولها ، ينشرها العطفان ، وينشرها الصبا وتفتح الشباب الارج، ويذكر احاديثهما الحلوة في البيت الثاني وما كان يتخللها احيانا من شكواه وشكواها ، شكوى ترق حتى لكانها النسيم العليل الذي يملا القلوب غبطـة ، ويصور في البيت الثالث كيف استأثرت صاحبته بكل مايملك من حب وعاطفة ، فهـي جميع منى نفسه وانه ليتمنى ان يكون بعض مناها ، فهذا كل امله ، وليس له امل وراءه ، وكلمات الابيات تسيـل عذوبة بما فيها من قرابة بين كلمات البيت الاول : كلمات المدام والسكر والعينين والعطفين والصبا ، وكذلك بـين كلمات البيت الثاني كلمات : اعتلال النسيم ، ورقـة الشكوى ، وفي البيت تقابل واضح بين شـكوى ابن زيدون وشكوى صاحبته ، وبالمثل في البيت الثالث تقابل واضـح بين منى نفسه ومنى ولادة . وكل ذلك يجعـل الكلمات في الابيات تتجاذب رناتها الايقاعية ويشد بعضها بعضـا في انسجام بديع .

وهذا الرحيق الموسيقي الذي كان يعرف ابن زيدون كيف يذيعه وكيف يمتعنا به في كؤوس ايقاعه كان يستمده من نفس الايقاعات الموروثة للشعر العربي ايقاعـات القصيد ، وقد شغف بهذه الايقاعات شغفا جعله لا يشغل نفسه بايقاعات الموشحات الجديدة التي أولـع بها شعراء الاندلس من حوله، وكلنا نعرف كيف عني اصحاب الموشحات باقاعاتها اللحنية ، تارة يقصرون شطورها ، وتارة يعنون باختيارها من ارشق الالفاظ واكثرها عذوبة ، وبذلـك كفلوا لموشحاتهم متاعا موسيقيا خلابا ، حتى يتلافوا مـا نقصها من ايقاعات القصيدة الموروثة ، سواء من حيث تعدد الاوازن فيها او من حيث تعدد القوافي ، وكأن ابن زيدون أراد أن يلقن الوشاحين من حوله درسـا ، مثبتا لهـم ان ايقاعات القصيد أن تسكب في الارنانات الصوتية مالا تستطيع الموشحات أن تسكبه الا في الندرة ، وغاية مافي الامر انـه يعوزها شاعر يعرف كيف يضبط ضبطا دقيقا آلات ألفاظه وذبذباتها الموسيقية ، كما يعرف خصائصها وطاقاتهـا الصوتية ، بحيث يختار منها لاشعاره مايجعل ايقاعها تارة رنانا رنينا ضخما ، ومايجعله تارة اخرى هامسا همسـا ناعما ، ليس العيب اذن في القيثارة العتيقة ، وانما هـو في الايدي التي تضرب عليها فاذا اتيحت لها يد كيد ابـن زيدون استطاعت ان تحملنا على اجنحة ايقاعه الى جـو موسيقي باهر بما فيه من الحان وانغام .

ولعلي لا أبالغ اذا ذهبت الى أن ابن زيدون كـان شاعر القصيد الاول في الاندلس الذي ثبت ايقاعاته ودعمها أمام الوشاحين وموشحاتهـم وماحققوا لها مـن تلحينات وتلوينات نغمية ، اذ ظلت القصيدة على مر الزمن تظفـر بالموشحية ، وظل لها القدح المعلى، وليس ذلك فحسب فان ابن زيدون لفت الوشاحين بقوة الى أنهم اذا أرادوا لموشحاتهم ان تنال الاستحسان وان يطرب لها الناس لابد ان يعكفوا على القصيد وتلاحينه والفاظه بحيث تتخلق موشحاتهم بين ألحانه مستمدة ألفاظها من ينابيع القصيد الحلو العذب ، حتى تتدفق الموشحة بأرق الانغام واصفى الالحان ، وبذلك ظلت الموشحة في جوهرها ولبها تتغذى من الشعر الموروث، تتغذى بخير ما فيه من غذاء نغمي ولفظي ولم يحدث تقاطع ولا تنابذ بينها وبين القصيدة ، اذ لم تتخذ اداة لمسـخ الشعر العربي وتغيير جوهره الموسيقي ، بل نمت من خلاله وخلال خصائصه اللفظية ودقائقه الموسيقية التي لا شـك في ان ابن زيدون اشبع بها ملكاته ، ودفع الوشاحين مـن حوله لكي يحاكوه في صنعه مستمدين من الصياغة الشعرية الموروثة الطوابع الموسيقية الاصيلة لشعرنا وما يترقرق فيه من بهاء يخلب الافئدة .

واذا كنا نعد الايقاع الموسيقي الساحر عند ابن زيدون عاملا مهما في التواصل بين ايقاعات الموشحات وايقاعات القصيد فاننا ايضا نعده عاملا مهما في استمرار سيطرة القصيد على الجو الادبي في الاندلس بايقاعاتها وارناناتها المتلاحمة ، وليس ذلك فحسب ، فان ايقاعه عد مثلا رفيعا لايقاعات القصيدة العربية لا بين شعراء الاندلس وحدهم ، بل ايضا بين شعراء المشرق ، اذ نرى بينهم كثيرين يعارضونه في قصائده ، وخاصة نونيته التي تحدثنا عنها وعن ابداعه الموسيقي فيها ، واذا كان النقاد في عصره وبعد عصره لاحظوا معارضته للبحتري في تلك القصيدة ومشابهة ايقاعه الصوتي لايقاعه فان اكبر شاعر موسيقي تلاه حتى عصرنا هو شوقي ، وايقاعه لا يبارى في جمال جرسه والحانه ، وهداه حسه الموسيقي منذ نشأته الى روعة الايقاع الصوتي عند البحتري وابن زيدون معا ، ولذلك نراه حين ينفى الى اسبانيا في الحرب العالمية الاولى من هذا القرن ويجوس بخياله في الفردوس الاندلسي ينظم قصيدتين ، بل آيتين من آياته ، سينيته يعارض فيها سينية البحتري التي عرضنا لها في فواتح هذا الحديث ، ونونيته يعارض فيها نونية ابن زيدون آنفة الذكر ، مؤمنا بأن قصيدة كل منهما يكتمل فيها ايقاعه الموسيقي الذي يغذي الارواح والافئدة ، ومحاولا بدوره ان يثبت جمال ايقاعه الموسيقي الخلاب وهو اعتراف عظيم من شوقي بما يحمل الايقاع الموسيقى عند ابن زيدون من رحيق مصفى ، وجعله اعجابه بايقاعه الآسر للقلوب في قصيدته : « ما للمدام تديرها عيناك » يعارضها بقصيدته الكافية اللبنانية المشهورة : « يا جارة الوادي » • ويسجل شوقي اعجابه بابن زيدون هاتفا بقوله :

ابن زيدون عبقري زمانه
قصر المحسنون عن احسانه

اخذ الروم في الجزيرة عنه
ومشوا في خياله وافتنانه

ولم يأخذ الاندلسيون وحدهم عنه روعة موسيقاه وتصويره والتياع فؤاده كما يقول شوقي ، بل أخذ عنه ايضا شعراء الاوطان العربية في كل زمان ، وما يزال اسمه وشعره بايقاعه الموسيقي البديع يترددان حتى اليوم من المحيط الى الخليج على كل لسان •

الدكتور شوقي ضيف

العدد القادم

من

مجلة الثقافة

يسهم في تحريره نخبة من أدباء المغرب العربي

محنة ابن زيدون كما يصورها شعره

الدكتور
عبد المنعم خفاجي

ـ ١ ـ

ألف عام او يزيد .....

مضت على ميلاد الشاعر الخالد، وابن قرطبة العظيم، ابن الوليد احمد ابن زيدون ....

ويا لها من ذكرى ، ويا له من تاريخ ، كل صفحاته مشرقة بالطموح والامل ، وبالحرمان والالم ، وبالمجد والعبقرية .

شاعر حاربته الايام ، وجللت صفحات حياته وشعره اقسى المحن والالام وعاش يطوي سني حياته عاما بعد عام، في محن وعداوات وغربة عن الوطن.

وكائن رامت الايا
م ترويعي فلم ارتع
اذا صابتني الجلى
تجلت عن فتى أروع
على ما فات لا يأسى
وما أناب لا يجزع

وقد ظلت المحن تلاحق الشاعر طيلة حياته يوما بعد يوم ، وعاما اثر عام وكان لهذه المحن القاسيات اثرها الكبير في حياة الشاعر وفنه .

اما في حياته : فهذا واضح كل الوضوح مما سنذكر نبأه بعد قليل ويقول الشاعر فيه :

وهو الدهر ليس ينفك ينجو
بالمصاب العظيم نحو العظيم

وأما في فنه :

فلقد انطقته باروع الشعر في الحنين والانين ، وألهمته خوالد القصائد العذرية الرومانسية الجميلة في الحب والغزل ، واوحت اليه بأدب وجداني عميق عبر الشاعر عن نفسه وذاته ومشاعره وعواطفه ابلغ تعبير ، وكذلك انطقته بروائع القصائد في المدح والاعتذار والشكوى ، وجعلته أرق الناس ديباجة وأعذبهم صياغة واجملهم اسلوبا ، بل جعلت منه اعظم شاعر قديم انجبته الاندلس كما يراه غومس وجب وفليب حتى ، عد أكبر شعراء العصر الكلاسيكي الاندلسي الثاني وتميز شعره بنزعة انسانية عالية كما يرى ليفي بروفنسال ، وصار ممثلا لانقى اسلوب عربي في الاندلس ومن الممكن موازنته بالمتنبي والبحتري كما يقول نيكل .

ـ ٢ ـ

لقد عاش ابن قرطبة النبيل وشاعرها الكبير طفولة مترفة في حياة والديه الرؤومين : ابيه الجليل ، فقيه قرطبة وعالمها ، عبد الله بن احمد بن غالب بن زيدون المخزومي الذي وصفه المؤرخون بالنباهة والجلالة والمعرفة باللغة والآداب وأمه الحنون السيدة التقية الجليلة ، ابنة القاضي ابي بكر محمد بن ابراهيم بن سعيد القيسي (٣٥٥ ـ ٤٣٢ هـ) ، التي رضع منها أفاويق الحنان وابتسم له في ظلها وجه الزمان .

ولكن القدر لم يترك له هذا الصفاء ، ولا تلك السعادة ، فمات الاب الحاني وابنه الطفل في الحادية عشرة من عمره عام ٤٠٥ هـ .

وكان لذلك اليتم المبكر اثره العميق في حياة الشاعر، كما كان احد الاسباب في فلسفة الالم الذي نجده ماثلا في شعره .

انه اول محنة امتحن بها الشاعر في اول حياته ... وعاش في كفالة جده لامه القاضي ابي بكر القيسي يتزود من مختلف الوان الثقافة بزاد واسع من المعارف والعلوم والاداب، على يد هذا الجد الجليل أبي بكر (٤٥٥-٥٣٢هـ)

وعلى يد استاذه ابي بكر مسلم بن احمد النحوي الاديب القرطبي المشهور (٣٧٦_٤٣٣ هـ) •

ومرت الايام وابن زيدون الشاب يصعد نجمه ويتألق حظه ، وترتفع في دوائر الثقافة والادب والشعر منزلته يوما بعد يوم •

وفي الازمات السياسية العنيفة التي مرت بقرطبة، وانتهت بانتهاء الخلافة الاموية في الاندلس وبقيام عصر ملوك الطوائف فيها ، عام ٤٢٢ هـ نجد ابن زيدون يشارك في الاحداث ، وتقوم في قرطبة الدولة الجهورية ويصبح الشاعر احد اركانها يؤازره في ذلك كرم محتده ، وشرف مولده ، وجلال مواهبه ، وحدة ذكائه ، وسعة ثقافته ، وبلاغة ادبه وسحر شعره وقوة شاعريته •• واصبح احد وزراء ابي الحزم بن جهور (٤٢٢_٤٣٥ هـ) ، والصديق الحميم لولي عهده ابي الوليد بن حزم ، وصار الملك القرطبي ابو الحزم يدنيه منه ، ويقربه اليه ويخصه بوده، ويمزجه بنفسه ، وكتب الشاعر فيه قصائد بليغة ذائعة، وظلت صلة الشاعر بمليكه على قوتها ووثاقتها عدة اعوام •

— ٣ —

وفي هذه الاثناء بدأت صلته بولادة بنت الخليفة المستكفي (٣٩٠_٤٨٤ هـ) ونظم ابن زيدون في قصة حبه اروع القصائد ، وكانت ولادة فتاة مغامرة لها اهداف سياسية بعيدة خفيت على كل الباحثين ، انها لم تكن تنشد الحب ، بل كانت تنشد تدبير بعض المؤامرات من اجل بعث الخلافة الاموية من جديد ، ووجدت في الوزير ابن زيدون عونا لها على تحقيق مآربها السياسية في مساعدة الامويين على اعادة عرش الخلافة الاموية الذي هوى ، ولابن زيدون كذلك مآرب سياسية بعيدة وقد تمتع بلقب الوزير دون ان يسند اليه عمل ، ودون ان ينال ما كان يتمناه من أمل ، حتى لقد مدح الملك القرطبي ابا الحزم فقال :

مقامي في جواركم الذليل
وحدي في رجائكم الكليل

نصيب من ولايتكم كثير
وحظ من عنايتكم قليل

اتحيا انفس الآمال فيكم
ولي اثناءها أمل قتيل

واعجب حادث نظري لديكم
الى غلل النجاح وبي غليل

وقد حي في ودادكمو معلي
وباعي في اعتمادكمو طويل

أأيأس من مساعفة الليالي
وأنت الى نهايتها سبيل

مما يدل على ان صلته بمليكه بدأ الوهن يتطرق اليها، ولابن زيدون كذلك صلات بالبيت الاموي ، وله في تاريخ الخلافة الاموية في الاندلس كتاب •

ثم كان هواه هو ولادة الاميرة الاموية الشاعرة الساحرة :

ربيب ملك كأن الله أنشأه
مسكا ، وقدر انشاء الورى طينا

كانت له الشمس ظئرا في أكلته
بل ما تجلى لها الا أحايينا

كانما اثبتت في صحن وجنته
زهر الكواكب تعويذا وتزيينا

ويقص ابن زيدون قصة حبه لولادة ، من بدئها لختامها فيقول

لما اتصلت اتصال الخلب بالكبد
ثم امتزجت امتزاج الروح بالجسد

سا ءالوشاة مكاني فيك واتقدت
في صدر كل عدو جمرة الحسد

فليسخط الناس لاأهدي الرضا لهمو
ولا يضع لك عهدا آخر الابد

ويقول

والله ما ساءني اني خفيت ضنى
بل ساءني أن سري بالضنى علن
لو كان امري في كتم الهوى بيدي
ما كان يعلم ما في قلبي البدن

ويقول

ما كان حبك الا فتنة قدرت
هل يستطيع الفتى أن يدفع القدرا

وكان ذلك الحب محنة ثانية امتحن بها الشاعر امتحانا شديدا حتى صار يرسل شعره العذري في الشكوى والانين والحنين ، وكتب رسالته الهزلية المأثورة حول ذلك بل صار موضع اشفاق المشفقين ، ونتبع الرواة والشعراء وكل طبقات مجتمع قرطبة الادبي يقول ابن زيدون في ولادة فيما يقول

متى ابثك ما بي
يا راحتي وعذابي
متى ينوب لساني
في شرحه عن كتابي
ما البدر شف سناه
على رقيق السحاب
الا كوجهك لما
أضاء تحت النقاب

ولكن الوزير ابن عبدوس (٤٧٢ هـ) وهو المنافس اللدود لابن زيدون استغل فرصة اغفال الملك القرطبي ابي الحزم لشاعره ووزيره · فأخذ يشي به عنده ، ويكشف له عن ميول الشاعر السياسية نحو البيت الاموي ، فوضع ابن زيدون تحت المراقبة ، واخذت ولادة تواري أهدافها السياسية ، وتظهر الحب لابن عبدوس لتكون في حمايته ، في مأمن من انتقام الجهوريين ولتظهر لوزير ابن حزم بعدها عن السياسة ومؤامراتها ، وساء ذلك الشاعر ، واشتعلت عواطفه ، واضطربت مشاعره ، وكان اول الامر يشك في أن يكون لولادة هوى في أبي عامر ابن عبدوس :

قالوا : ابو عامر يلم بهـا
قلت : الفراشة قد تدنو من النار

وبعد قليل يعتقل ابن زيدون ، ويزج به في السجن، بتهمة التآمر على اعادة الخلافة الاموية ، وكان ذلك بعد عشر سنوات من قيام حكم الجهوريين في قرطبة بزعامة ابي الحزم بن جهور ، وكان اعتقاله في اوائل المحرم من عام ٤٣٢ هـ حيث ظل فيه حتى شعبان من عام ٤٣٣ هـ ·

ـ ٤ ـ

وكان اعتقال الشاعر وحبه محنة ثالثة من المحن التي نكب بها في حياته بل كانت اقسى محنة نزلت به على نفسه· وفي السجن عومل ابن زيدون معاملة سيئة ونكل به تنكيلا شديدا ، ولم يجد أمامه عزاء الا في الشعر ينظمه أهات حزينة ، وعبرات تصف آلامه وشقاءه وانينه وحنينه ، ويكتب به الى اصدقائه يتحدث فيه ، عن محنته ، كتب من السجن لصديقه ابي حفص بن برد يقول

ما على ظني باس
يجرح الدهر وياسو
ربما أشرف بالمر
ء على الامال ياس
ولقد ينجيك اغفا
ل ويرديك احتراس
وكذلك الدهر اذا ما
عز ناس ذل ناس
نلبس الدنيا ولكن
متعة ذاك اللباس
أنا حيران وللامـ
ـر وضوح والتباس
ما ترى في معشر حا
لوا عن العهد وخاسوا

ورأوني سامريا
يتقي منه المساس
أذؤب هامت بلحمي
فانتهاش وانتهاس
كلهم يسأل عن حا
لي وللذئب اعتساس
ان قسا الدهر فللما
ء من الصخر انبجاس
ولئن أمسيت محبو
سا فللغيث احتباس
فتأمل كيف يغشى
مقلة المجد النعاس
ويفت المسك في التر
ب فيوطا ويداس

ويتذكر وهو في السجن أيام حياته ، فيقول من موشحة :

خليلي ان أجزع فقد وضح العذر
وان استطع صبرا فمن شيمتي الصبر
وان يك رزءا ما أصاب به الدهر
ففي يومنا امر وفي غده خمر
رمتني الليالي عن قسى النوائب
فما أخطأتني مرسلات المصائب
أقضي نهاري بالاماني الكواذب
وآوى الى ليل بطيء الكواكب
أقرطبة الغراء هل فيك مطمع ؟
وهل كبد حرى لبينك تنفع ؟
وهل للياليك الحميدة مرجع ؟
اذا الحسن مرأى فيك واللهو مسمع

ثم يقول منها :

أ اخواننا للواردين مصادر
ولا اول الا سيتلوه آخر

واني لاعاتب الزمان لناظر
فقد يستقيل الجد والجد عاثر
ظعنت وكان الجد يجفي فيظعن
وأصبحت أسلو بالاسى حين احزن
وقر على اليأس الفؤاد الموطن
وان بلادا هنت فيها لاهون

ويرسل وهو في السجن الى ابي الحزم مدائح رائعة واعتذاريات ، رفيعة ، تصور همومه واحزانه وآلامه النفسية العميقة ٠٠٠٠ كتب اليه يقول :

ألم يأن أن يبكي الغمام على مثلي
ويطلب ثأري البرق منصلت النصل
وهل أقامت أنجم الليل ماتما
لتندب في الآفاق ما ضاع من نثلي
أخص لفهمي بالقلى وكانما
يبيت لذي الفهم الزمان على دحلي
واجفى على نظمي لكل قلادة
مفصلة السمطين بالمنطق الفصل
ولو أنني أسطيع كي أرضي العدا
شربت ببعض الحلم حظا من الجهل

ثم يناجي والدته المكلومة من أجل وحيدها المرزأ فيقول من القصيدة نفسها :

أمقتولة الاجفان مالك والسها
ألم ترك الايام نجما هوى قبلي ؟
أقلي بكاء لست اول حرة
طوت بالاسى كشحا على مضض الثكل
وفي ام موسى عبرة ان رمت به
الى اليم في التابوت فاعتبري واسلي
ولله فينا علم غيب وحسبنا
به عند جور الدهر من حكم عدل

ثم يأخذ في مدح الملك والاعتذار اليه والاستشفاع لديه وتبرئة ساحته عنده فيقول :

ولو انني واقعت عمدا خطيئة
لما كان بدعا من سجاياك ان تملي
فلم أستثر حربا الفجار ولم اطع
مسيلمة اذ قال اني من الرسل
ومثلي قد تهفو به نشوة الصبا
ومثلك من يعفو، وما لك من مثل
واني لتنهاني نهاي عن التي
أشاد بها الواشي ويعقلني عقلي
وما كنت بالمهدي الى السؤدد الخنا
ولا بالمسيء القول في الحسن الفعل

وفي القصيدة نفسها يقول الشاعر :

أفي العدل ان وافتك تترى رسائلي
فلم تترك وضعا لها في يدي عدل
أعدك للجلى وآمل ان أرى
بنعماك موسوما وما أنا بالغفل

والقصيدة جميلة تقف مع روائع النابغة في الاعتذار في منزلة واحدة .

وكتب الشاعر من السجن الى ولي العهد ابي الوليد بن جهور يستعطفه ويطلب شفاعته فيه ، وساعده الحظ واصدقاؤه ومنهم ولي العهد على الهرب من السجن فخرج من المدينة ـ قرطبة خائفا يترقب ، وكتب الى صديقه ابي بكر مسلم بن احمد قصيدة بعد فراره من السجن يصور فيها احداث حياته فيقول :

أ أحبابنا ألوت بحادث عهدنا
حوادث لا عقد عليها ولا شرط
لعمركمو أن الزمان الذي قضى
بشت جميع الشمل منا لمشتط
ألا هل اتى الفتيان ان فتاهم
فريسة من يعدو ونهزة من يسطو
عليك ابا بكر بكرت بهمة
لها الخطر العالي وان نالها حط
أبي، بعد ما هيل التراب على أبي
ورهطي فذا، حين لم يبق لي رهط
لك النعمة الخضراء تندى ظلالها
علي ولا جحد لدي ولا غمط
هرمت وما للشيب وخط بمفرقي
ولكن لشيب الهم في كبدي وخط
مئين من الايام خمس قطعتها
أسيرا ، وان لم يبد شد ولا قمط

ثم يقول :

فررت فان قالوا : الفرار ارابة
فقد فر موسى حين هم به القبط

ويحرضه على الشفاعة له عند ابي الحزم فيقول :

فما لك لا تحتضني بشفاعة
يلوح على دهري لميسهما علط
فان يسعف المولى فنعمى هنيئة
تنفس عن نفس الظ بها ضغط
وأن يأب الا قبض مبسوط فضله
ففي يد مولى فوقه القبض والبسط

وبذلك انتهى فصل طويل من محنة ابن زيدون هذه المحنة التي يصورها فيقول :

نار بغي سرى الى جنة الامن
لظاها ، فاصبحت كالصريم

وما أكثر ما يذكر الشاعر كلمة (الامن) في شعره تنويها بضرورته لحياة الانسان ، هذا الامن الذي شعر بخسارة فقده له وهو في الحبس ، يقول ابن زيدون فيما يقول منوها بنعمة الامن والامان :

بحيث مقيل الامن ضاف ظلاله
وفي منهل العيش العذوبة والبرد

ويقول في المعتضد بعد ذلك :

لقد جدت حتى ما بنفس خصاصة
وامنت حتى ما بقلب تخوف

ويقول في المعتمد :

لبسنا لديه الامن تندى ظلاله
وزهرة عيش مثلما اينع الزهر

وعادت لنا عادات دنيا كأنها
بها وسن او هز اعطافها سكر

ـ ٥ ـ

حط الشاعر رحاله بعد فراره من سجن ابي الحزم في اشبيلية ، يلتمس الامن في ظلال بني عباد ، واخذ يرسل آهاته الحارة الى بني جهور فيقرطبة وكانوا قد وضعوا اهله وقرابته تحت المراقبة ، يقول الشاعر فيما يقول :

بني جهور أحرقتم بجفائكم
فؤادي فما بال المدائح تعبق

تظنوني كالعنبر الورد انما
تفوح لكم انفاسه حين يحرق

اخذ الشاعر يحيا مغتربا في ظلال دولة بني عباد ، ولازم الاغتراب الشاعر طيلة حياته ، فكان محنة اخرى أشد من محنة الحبس على نفسه ، فلم تزل الايام (تدنيه وتبعده ، وتسوؤه وتسعده ، وتقذى به الى كل نازح) كما يقول ابن خاقان .

ويبدو ان اصدقاء الشاعر استطاعوا ان يظفروا بعهد لابن زيدون ان عاد الى قرطبة ليحيا فيها سيرته الاولى ، وهي وطنه الحبيب وفيها أمه الحنون ، واحبابه الاعزاء على نفسه ، وعاد الشاعر في آخر أيام أبي الحزم ، قبل وفاته بنحو سبعة أشهر ، ليقيم فيها من جديد ، وليطفيء غلة اشواقه الى معاهدها وملاعب صباه وحبه وشبابه فيها ، ونظم نونيته الرائعة التي تحدث فيها عن هواة العذرى لمحبوبته ولادة :

اضحى التنائي بديلا من تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا

ومدح ابن زيدون ابا الحزم بقصائد عديدة ، اعلانا منه لوفائه لاميره وتعلقه بوطنه ومات ابو الحزم فرثاه الشاعر ، ووضع كل آماله لدى ابي الوليد :

ابا الحزم قد ذابت عليك من الاسى
قلوب مناها الصبر لو ساعد الصبر

دع الدهر يفجع بالذخائر اهله
فما لنفيس مذ طواك الردى قدر

ثم يقول في القصيدة نفسها يعلق كل آماله بالملك الجديد :

لك الخيراني واثق بك شاكر
لمثنى اياديك التي كفرها الكفر

فصدق ظنونا لي وفي فانني
لاهل اليد البيضاء منك ولا فخر

ويمدح ابا الوليد في مبالغة شديدة وهو يهنئه بالولاية ، فيقول في قصيدة أخرى :

فرح الرياسة اذا ملكت عنانها
فرح العروس بصحة الاملاك

من قال انك لست اوحد في النهى
والصالحات فدان بالاشراك

ويطالبه بولاية او منصب كبير فيقول :

قلدني الرأي الجميل فانه
حسبي ليومي زينة وعراك

وعلت منزلة الشاعر عند ابي الوليد ، وقدمه الملك واسنى خطته ،ونوه به، وجعله في الذين اصطنعهم لدولته، وجلله الكرامة كما يقول ابن حيان معاصره

ولكن الشاعر كان يريد ان يكون مكانه بجوار ابي الوليد في ذلك حتى جفاه ، وهانت مكانته لديه ، وخرج الشاعر من قرطبة مرة اخرى يجوب البلاد ، ويسير بين عواصم ملوك الطوائف ، فمن بلنسية الى بطليوس ، الى طرطوشة ، وفي كل مكان يحل به يرسل الشكاة والآهات ، فيقول وهو في بطلوس :

يادمع صب ماشئت ان تصوبا
ويا فؤادي آن ان تذوبا

لم ار لي ، في اهلها ، ضريبا
اذ الرزايا اصبحت ضروبا
قد ملأ الشوق الحشا ندوبا
في الغرب اذ رحت به غريبا
عليل دهر سامني تعذيبا
ادنى الضنى اذ ابعد الطبيبا

ولكنه عاد بعد قليل الى قرطبة بعد ان وصله صك من الملك الجهوري ابي‌الوليد ، فعاش فيها بعيدا عن الاضواء ، ولم تلبث قرطبة أن شهدت عام ٤٤٠ هـ ثورة عارمة هواها اموي ، والقائمون بها هم بنو ذكوان ،وكانوا من قبل اصدقاء للشاعر وكاد يزج بابن زيدون في هذه المؤامرة ، ولكنه اسرع في اعلان ولائه للملك ونقمته على المتآمرين وبراءته منهم :

ان الاولى كنت من قبل افتضاحهم
مثل الشجا في لهاهم ليس ينتزع
لم أحظ اذ هم عدى باد نفاقهم
الا كما كنت احظى اذ هم شيع
اودعت نعماك منهم شر مفترس
لن يكرم الغرس حتى تكرم البقع
لا تستجز وضع قدري بعد رفعكه
فالله لا يرفع القدر الذي تضع

ولكن أبا الوليد انصرف عن ابن‌زيدون وجفاه ، فعاد الشاعر الى الهجرة والاغتراب من جديد ، حيث رحل الى بطليوس عام ٤٤١ هـ ومر به العيد وهو في اغترابه فقال يحن الى قرطبة ومعاهدها :

خليلي لا فطر يسر ولا اضحى
فما حال من أمسى مشوقا كما أضحي

ويقول :

ألا هل الى الزهراء أوبة نازح
تقضي تنائيها مدامع نزحا

وبعد قليل وفي العام نفسه ٤٤١ هـ حط رحالة من جديد في اشبيلية ونزل ببلاط مليكها المعتضد بن عباد ـ ٤٣٣ هـ ٤٦١ هـ ـ ومدح المعتضد بقصائده بليغة ومما جاء في احدى هذه المدائح يلوح به الى الملك الجهوري من بعيد :

ألا هل جاء من فارقت اني
بساحات المنبى رفل البراح ؟
واني من ظلالك في زمان
ندى الايصال رقراق الضواحي

ورفعه المعتضد الى منصب ذي الوزارتين ، وجعله سفيره الى ملوك الطوائف وصار امير الشعراء في اشبيلية التي كانت تعج بالشعراء .وفي هذه العاصمة الجميلة وفي ظلال المعتضد عاش الشاعر نحو العشرين عاما ، ومع مناصبه وجلالة محله من بني عباد ، فقد ظل يذكر قرطبة واحبابه‌فيها ، فنراه يقول :

هل تذكرون غريبا عاده شجن
من ذكركم وجفا اجفانه الوسن
يخفي لواعجه والشوق يفضحه
فقد تساوي لديه السر والعلن
يا ويلتاه ايبقى في جوانحه
فؤاده وهو بالاطلال مرتهن
وارق العين والظلماء عاكفة
ورقاء قد شفها اذ شفني حزن
فبت اشكو وتشكو فوق ايكتها
وبات يهفو ارتياحا بيننا الغصن
يا هل أجالس أقواما احبهمو
كنا وكانوا على عهد فقد ظعنوا
او تحفظون عهودا لا اضيعها
ان الكرام بحفظ العهد تمتحن
ان كان عاد كموعيد فرب فتى
بالشوق قد عاده من ذكركم حزن

وافردتـه الليالـي مـن احبتـه
فبات ينشـدها ممـا جنـى الزمن
« بـم التعلـل لا اهـل ولا وطـن
ولا نـديـم ولا كـأس ولاسـكن »

... وهي لوعة غريب وآهة حبيب الى حبيب ... ويموت المعتضد عام ٤٦١ هـ ، ويقوم المعتمد (٤٦١ ـ ٤٨٤ هـ) ، ويقر الملك الجديد الشاعر على ما كان عليه في عهد أبيه ، ويزيد في تكرمته :

ـ ٦ ـ

ويعيش ابن زيدون محنته الاخيرة ، محنة بالواشين والحاسدين والحاقدين وماكان اشدها من محنة على نفسه، وكم كانت في حياة الشاعر من محن قاسيات ، فمن تنكر الاصدقاء الى تهجم الاعداء وتهجم الوشاة ، وكما يقول ابن زيـدون :

كان الوشـاة وقد منيت بافكهم
اسباط يعقوب وكنـت الذيبـا

وكمايقول :

اذؤب هامـت بلحمـي
فانتهـاش و انتهـاس

فمن خصومة ابن عبدوس ، الى عداوة شاعراشبيلية علي بن غالب بن حصن الىخصومةالمعتضد أبي محمد عبدالله بن يوسف بن عبد البر الى حسد وزير المعتمد ابن عمار ـ ٥٨٠ هـ ، وحقد قائد جيشه في فتح قرطبة ابن مرتين .. وسواهـم .

وفي مطلع ملك المعتمد هاج حساد الشاعر وكتبوا قصيدة بعثوا بها الى الملك يغرونه بابن زيدون ، ليصلوا الى مآربهم من ابعادهعن الحياة السياسيةفي اشبيلية ،وفيما يقولـون :

يا ايها الملـك العلـى الاعظـم
اقطع وريـدي كل بـاغ ينئم
واحسـم بسيفك داء كـل منافـق
يبـدي الجميـل وضـد ذلك يكتم

واذكر صنيـع ابيـك اول امـره
في كـل متهـم فانـك تعلم
لـم يبـق منهـم مـن توهـم شره
فصفت له الدنيـا ولذ المطعم
فعـلام تنكل عن صنيـع مثلـه
ولانت امضـي في الخطـوب واشهم
لا تتركـن للناس موضـع تهمة
واحزم فمثلـك في العظائـم احزم

ولكن المعتمد رمى بالقصيدة عرض الحائط ، وهو يردد :

كـذبت مناكـم صرحوا او جمعـوا
الدين امتـن والسجيـة اكـرم
خنتـم ورمتـم ان أخـون وانما
حاولتمو ان يستخـف يلملم

وعلم الشاعر بماحدث فمثل بين يدي الملك يشكره هذا الموقف النبيل بقصيدة طويلة جاء فيها :

لي منك فليذب الحسود تلظيـا
لطف المكانة والمحـل الاكـرم
وشفوف حظ ليس يفتـأ يجتلى
غض الشباب وكل حظ يهـرم

وفي شعبان من عام ٤٦٢هـ يفتح جيش المعتمد قرطبة ويضمها الى اشبيلية بفضل تدبير ابن زيدون ، فنال مـن الملك تقديرا وحمدا ، وعاد الشاعر الى وطنه يقبل ثراه، ويبثه هواه . لكن السياسة الزمته ان يعود الى اشبيلية في مهمة سياسية، واقام عدة شهور مسه فيها الوصب ، واضناه التعب واعياه المرض ، واخـيرا مات الشاعر الغريب في اشبيلية بعيدا عن مسقط رأسه وهوى نفسه قرطبـة الجميلة ، وكان ذلك في صدر رجب من عام ٤٦٣ هـ الثالث من ابريل عام ١٠٧١ م ، وسكت الصوت الذي كان يهز الجماهير ، وخبا النجم الذي كان يضيء الدياجير ، ومـات

فتى الادب ، وعمدة الظرف ، والشاعر البديع الوصف والرصف ، والوسامة والدراية ، وحلاوة المنظوم والمنثور، وقوة العارضة والافتنان في المعرفة كما يقول معاصره ابن حيان .

وحمل جثمان الشاعر العظيم فدفن فيها بين بكاء الشعب واجلاله واكبار الوطن واعظامه ، وسجلت صفحات التاريخ اسم الشاعر في هالة من النور والمجد والخلود ومرت المحن وغربة الشاعر عن الوطن ، وبقيت الذكرى الخالدة ، ذكرى عبقرية شاعر ، عاش محنته وغربته ، مرفوع الرأس ، ابي النفس ، كريم الخلق ، ممتد الذكر في كل افق ، الشاعر الذي كان يغني للدنيا آلامه ، ويشدو بالشعر احلامه فيقول :

فان يجدب من الدنيا
جناب طالما امرع
فما ان غاض لي صبر
ولا ان فاض لي مدمع

والذي طالما شكا دهره الى الناس :

من عذيري من ريب دهر خؤون
كل يوم اراع منه بغدر

والذي قاسى في حياته ما لو قاست مثله الجبال لانهد شاهقها :

ما لي وللايام لج مع الصبا
عدوانها فكسا العذار مشيبا
لألم بي ما لو ألم بشاهق
لانهال جانبه فصار كثيبا

واذا كانت غربة الشاعر ومحنته قدرا قدر عليه ، حتى لا يجد في حياته الامن والطمأنينة الا بعيدا عن وطنه قرطبة ، فقد قدر له كذلك بعد حياته الا يجد المحتفين بعبقريته وبشاعريته الا بعيدا عن قرطبة ، حيث عاصمة الملك العربي المسلم الحسن الثاني ، تحتفل بالذكرى الالفية ، لميلاد شاعر عظيم ، وهب العربية اسمى كنوزها، ومنح الادب اجل ذخائره ، وتوج الشعر بارفع قلائده وابلغ خوالده واجمل اوابده .

فسلام عليه في الخالدين ، وسلام عليه في الاولين ، وسلام عليه في الاخرين .

وداع

ودع الصبر محب ودعك
ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن
زاد في تلك الخطا اذ شيعك
يا أخا البدر سناء وسنى
حفظ الله زمانا أطلعك
أن يطل بعدك ليلى ، فلكم
بت أشكو قصر الليل معك

●● ابن زيدون



شاعر من عبقر

حسن عبد الله القرشي

عبقري الفكر ، فذ الصولجان
ساطع كالشمس في أفق الزمان

حاضر ناء ، مطل طيفه
في صراع للمنايا والاماني

مشرئب للعلى في فنه
رنة العود وأناة الكمان

قد تدانت راية المجد له
وهو للراية معقود الرهان

هو في الشعر وفي النثر معا
قمة سامقة بل قمتان

ملكي الحب لم يظفر بما
يجتدي العاشق من عذب المجاني

غير أن الحب قد علمه
كيف يمشي فوق أطراف السنان

كيف يغدو اليم جهما مركبا
وهزيم الرعد أصداء قيان !

★ ★

أيها الشاعر قف في طرب
لفتى الخلد ، وصياد الجمان

أرهف السمع لأحلى وتر
داعب الارواح في أحلى افتنان

صاغه شاد سماوي الهوى
عاشق عتقه عشق الحسان

عاش بالشعر وللشعر صدى
فهو والشعر المجلي توأمان

ان مضت ألف على غربته
فهو عصري الرؤى نبع معاني

سيد الحرف وكم أبدع في
رفقة الحرف بقلب ، ولسان

الخطيب المعتلي هام السهام
والاديب المجتلى في المهرجان

لـم يكن يهجو وهـل يهجو الذي ... صيغ من اشـعاع نور وحنان ؟
ملك في غـابة موحشة ... لا يبالي بوغى الحقد العوان
حسدوه نابغـا مبتكـرا ... يتغـذى من سنـاه المنيران
غيبوا « يوسف » في السجن وكم ... عصف المأسور بالسجن المهان
فـاذا أزهـاره ملء الـدنـى ... واذا أنـواره أنس المكـان
واذا الكـون عـلى أمـدائـه ... مسرح للخالـد الحر العنـان !

★ ★

أيقظوا النـائم من رقـدته ... فلقـد أخصب زهـر الاقحوان
وسلوا « ولادة » فيـم نـأت ... بعـد أن علتـه أكـواب الـدنان
ويحهـا ، رغم الاسى ماشعـرت ... بعريق الجرح في القلب المعـاني
فضحتـه نظـرة الشـوق لهـا ... إن عيني عاشـق فاضحتـان
أغـدقت ثـم جفت نافـرة ... يا لـه الظبـي نفور كـل آن
فالجوى مورده بعـد الجنـى ... والنـوى عـاد بـديـلا للتدانى
ورؤى الزهـراء والحسن بهـا ... لـم تعـد غير جهـام ودخـان
خـسر الحـب ولكـن كسـبت ... دولة الشعر افانـين الاغـاني
وكـذا العاشق مهمـا انطلقت ... روحـه فهو قصي مثـل داني !

★ ★

يا ابن زيدون كلانـا معرق ... في المعالي قد نمتنـا المروتان
نسب الشعر ، وأصلاب الـذرى ... من «قريش» ، وصراعات الغواني
ومعـانـاة الليـالي حلمـا ... لم يزل يوغل في تيـه الامـاني
كم تـلاقينـا بظـل المنحنـى ... وتنشينا شـذى أثـل وبـان
يا فتـى الالهـام قـد جمعنـا ... رغم بعـد العهداعصار الثواني
ان تكن من لذرى الغيب انتمى ... فكلانـا في المـدى مقتربـان
مثـلك الآن أنـا مرتهن ... لرسيس الشوق ، خفاق الجنـان
عـابر فوق بسـاط راعش ... غارقان ما بـين رنـان مثاني

ضـارب في القفر وحـدي أبدا   ما خر في البحر من شط لثـاني
ولـذا عشت نسيجـا في دمي   ونشيجا يتلظـى في كيـاني
حـدثونا عن ثرى « أنـدلس »   حـين كنا سادة في المهرجـان
حـين كان النجم حصبـاء لنا   والدنى طـوع اشارات البنان
عن ديـار الشمس في نضرتهـا   عن رؤى العز ووادي الصولجان
عن ثمـان مـن قـرون عبـرت   مـاج فيها السعـد موفور الامان
الاذان السمح كـم دوى بهـا   عربي اللحـن في أسنى زمـان
حدثونا عـن حضـارات الالـى   أزهـر الفتـح بهـم في المعمعـان
وأذكروا الشعـر فكم اوحت لـه   مـن فريد القـول مخضل المعاني
كم سما فيها « ابن هاني » مبدعا   « والخفاجي » وأقطـاب البيان
رب ذكـرى أشعلت من همـم   رب نجـوى بـددت ظل هـوان !

★ ★

أنت في « المغرب » في أرض العلـى   مربض الاسد ، وغاب السنديان
أنت في « مراكش » الشعر ومـا   أقرب المثوى بهـا من « قيروان »
صـدح التاريـخ في أبهـائهـا   يتحدى صولة البـاغي الجبان
حي شعبا في رباهـا قد سـما   زاكي العـرق أصيـل العنفوان
صـارع الاحـداث حتى انهزمت   واستطال النجم في رفعـة شان !

★ ★ ★

يا رفاقـي في أصيـل أو ضحـى   وعـلى مرفـأ بؤسى أو ليـان
اجمعوا الشمل وسـيروا للعـلى   فالحمى رهـن صراع وامتحـان
و « فلسطـين » جراح تغتلـي   وثـرى مختضـب بالارجـوان
أذكروا « القدس » وما حـل بهـا   فهي مـازالت بكـف الحـدثان
هي مرقى « المصطفى » من قـدم   في سـراه وهـي مرآة الجنـان
بـارك الله ثراهـا وسمـت   بـالنبيـين فـأكـرم بالمكـان
هـل لهـا مـن وثبة عارمـة   تستعيد الحق مرهوب الكيان ؟!

حسن عبد الله القرشي

ابن زيدون

الفيلسوف الشاعر

بقلم الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله

يرى كوليردج ان الشاعر لا يكون عظيما الا اذا كان فيلسوفا فأشرقت نفسه بدرر الحكمة وترقرقت في شعره متبلورة في تواكب وتساوق بين خلجات القلب ونوازع العقل وملابسات العصر فالشعر اذن فلسفة تنتجع الانتظام في واقع الحياة وحكم الاحداث وتيارات المجتمع وللشعر نبرات تنطلق من أوتار الوجدان فاذا طبعته البيئة بميسمها الحي ومنطقيتها الانسانية كانت ذرات الوجدان انبثاقة فطرية كيفت فلسفة الشاعر •

وكذلك كان ابن زيدون كما كان بعده ابن الخطيب! فيضا من الانطباعات ونبعا من النبضات تأرجحت بين قدسية الانسجام وحضيضية الارتسام وتبلوت معطياتها في وصف رائع دقيق لملابسات العصر ورجات الحضارة العربية في منصهر السياسة الاندلسية التي استعر اتونها بين مناقضات امراء الطوائف امثال بني زيري في غرناطة وبني صمادح في المرية وبني جهور في قرطبة وبني عباد في اشبيلية وبني ذي النون في طليطلة وبني الأفطس في بطليوس وبني هود في سرقسطة وبني رزين في السهلة ومجاهد العامري بدانية •

عايش احمد بن عبد الله بن زيدون هذه الاحداث بعد ان ولد في الرصافة عام ٣٩٤ هـ فتقلب بين السفارة والوزارة وذاق الامرين من حياة البلاطات التي اترعتها فوضى الاخلاق آنذاك بالملذات المريبة العابرة فاقبل على مجالس الغناء ومخادع النساء في خلاعة تتخللها فترات من الانابة بحكم الارث الاسروي تارة والموقع بين الامراء والعلماء تارة اخرى حيث تبرق من طلبات النفس لواعج الاسى الصادق والاشراق الغامر فيشع السر او الباطن بأرق الاحاسيس غير ان الموكب النفساني لا يلبث ان يتأزم في تلوين يبرز سطحية التمكين وفي عربدة الزهو والخيلاء والفخر بين جنبات الرياض والغياض فيبدأ اللسان وينتشر الهجاء وتقاسي ولادة بنت المستكفي من هذا النزق •

بعد حب ملك الانفاس واستهلك النفائس

وفي أثناء هذا وذاك يفزع شاعرنا الى مراتع الصبا والانس بقرطبة ملجأ الفارين

معاهد لذات وأوطان صبوة

أجلت المعلي في الاماني بها قدحا

وما انفك جوفي بالرصافة مشعري

دواعي ذكر تعقب الاسف البرحا

ولكنه يظل في نزول وصعود عقودا من السنين واخيرا يلفظ النفس غب رجات وهزات في غمرة الاسى باشبيلية مهبط المتعة ومنطلق المجون عام ٤٦٣ هـ بعد ان كان يوسف بن تاشفين قد وطد الامن والوحدة في العدوة الجنوبية وخاصة مدينة فاس قبل ذلك بسنة واحدة (عام ٤٦٢ هـ) ما لبث ان هب بعدها تلبية لاستصراخ الاندلس ضد اقتطاع المسيحيين كفاف الفردوس وتسابق الامراء المسلمين الى خطب دوفرناند والفونس السادس وباقي زعماء الصليب في قشتالة وليون •

نعم وجد ابن زيدون نفسه منذ مقتبل العمر في تضامين مجتمع اختلط فيه حابل الاجناس من عرب وأفارقة واسبان وألمان وايطاليين بنابلهم وارتبطت الاندلس بالشرق في بعض طفراتها في شتى مجالات الفكر ولكنها اتسمت في الادب والعلم والفلسفة بالوان وشيات جمعت بين التحرر والتزمت فحرقت كتب الفلسفة ثم ما فتئت ان انطلقت من قيودها متأرجحة في ازدواج التفكير الفلسفي

بالتفكير الديني تحت تأثير خريجي جامعة قرطبة بزعامة ابن حزم وقد نهل ابن زيدون من هذا النبع فصبغت جامعة قرطبة عقله وشذبت شعوره واحاطته بهالة ارتسم شعاعها التقليدي في اسلوبه ونبرات شعره

ونجدني علم توالت فنونه

كما يتوالى في النظام سخاب

وكان هذا اللون من التفكير يقتم وينفتح في مصادر شاعرنا وموارده في مقوله نظما ونثرا وكأنه مرآة انعكست عليها صور من ثقافة العصر في الحديث والفقه والاصول والسنة والفلسفة والكون والفساد والجوهر والعرض والطب والتاريخ واللغة والادب والغزل والمديح والاستئناف فبلغ الذروة في الشعر ومزج احاسيسه الغامرة بمكنون الحب ورحيق الرشفات وزهرة الدنيا ورغد العيش بزهد مفتعل وفكر تقليدي مخلخل واخيرا انهار كيانه المتماسك تحت ضغطة الارتياع بنوازع اللوعة وهجران الحبيب والانصياع لنوائب الدهر في غياهب السجون •

ظل ابن زيدون في خضم العصبيات المنيفة بين المضريين كبني حمود والقحطانيين كبني عباد ميالا الى صنهاجة الاطلس الاوسط وزناتة السهول

يراجم من صنهاجة وزناتة

بمثل نجوم القذف مثنى وموحدا

ولكن في غير عصبية العصابة الاصلاج لان الصراع لم يكن بالاندلس سلاليا عنصريا عرقيا وانما كان امتدادا لتجاذبات بين القبائل العربية خفف الاسلام من لأوائهما لان الاندلس ظلت مع المغرب العربي شقا غربيا طبعه الاسلام ووسمته العروبة في بوتقة انصهرت فيها كل المعطيات •

كانت الثقافة الشرقية هي المنوال الذي حاك عليه رجالات الفكر واذا تتبعنا لدى ابن زيدون اشنات التراثين الشرقي والغربي اسلوبا ونزعة وروحا لاحظنا وحدة الجوهر ادبا وفلسفة واجتماعا بل ومنهجية وعقلية مع فروق لا تنفذ الى الاعماق وسردها مقتضيات اللون المحلي والشيات الجهوية والغريب ان المنصر اللاتيني نفسه انصهر وذاب في مشاعر العبقرية العربية فانطلقت الوجدانيات والعقلانيات معا في مسار عربي اداته لغة الضاد واطاره تراث وحد الاسلام مقوماته توحيدا حدا اللاحق الى مزيد من الاقتباس من السابق فتبلور هذا الاحتذاء في تبنيات شاملة لشتى مجالي حضارات « بردا » والنيل والرافدين والحرمين فكان لابن زيدون نصيب الاسد في هذه الصهرة عند ما لقب ببحتري الاندلس كما لقب ابن هاني بمتنبي المغرب وحمدة بخنسائه •

وسار هذا الاحتذاء خطوة اعمق فنافس الاخ اخاه الاكبر واتسمت هذه الطفرة احيانا بسمة التخلص من التبعية الفكرية للشرق مسايرة للاستقلالية السياسية التي بلغت حد الانفصال • وكان لابن سبعين في عقلانيته الصوفية ولابن حزم في مفاضلاته ولابن بسام في ذخيرته الاثر البليغ في تكييف هذا النوع الجديد من التباري فتحدى ابن بسام « يتيمة الدهر » للثعالبي ونافس ابو الفرج الجياني بكتابه (الحدائق) (كتا بالزهرة) للاصفهاني وبارى ابن زيدون بكتابه « التبيين » في خلفاء بني امية بالاندلس كتاب « التعيين » في خلفاء الشرق للمسعودي •

ثم حقق الاندلسيون خطوة جديدة اعمق وهي ابتكار منهجيات طريفة في البحث العلمي والترجمة والنشر فظهر في خصوص ما يهم شاعرنا اسلوب ابتداعي تبلور في التحلل من قيود الوزن في الموشحات والازجال فكانت مبادرة مهدت للشعر الحر او المرسل دون مساس بروعة واصالة الشعر الكلاسيكي هذا بينما ظل التقليد سافرا في ابسط العناصر وقد قلد ابن شهيد الهمداني حذو النعل بالنعل في « مقامته الابليسية » وغيرها ولكن الاسلوب الموسل في كتابه «التوابع والزوابع » وكذلك في « طوق الحمامة » كان حقا فلتة من فلتات ذلك العصر وقد عايش ابن زيدون هذه الطفرات التي لم يكد يشرف القرن الخامس على التمام حتى استوثقت

فيها معالم استقلال فكري برز به المغرب والاندلس في شتى مجالات المعرفة حتى امكن للدكتور لوكلير صاحب (تاريخ طب العرب) ان يقيم نتاج الفكر العلمي المغربي آنذاك ويصفه بانه كان اشد عمقا منه في باقي الاقطار الاسلامية (ج١ ص ٧ـ٤) ويعلل « لوكلير » هذه الانتفاضة بما حققه الفكر من تحرر لم يسبق له مثيل في ظل المرابطين والموحدين وان كان المغرب قد عرف قبيل ذلك في شخص خلف بن عباس الزهراوي اعظم طبيب في الجراحة العربية وفي شخص قسطنطين التونسي اروع ترجمان نقل عشرات الكتب الى اللاتينية ، كما عرف في شخص ابن مروان عبد الملك بن زهر احد زعماء التجربة العلمية الاصيلة التي حدت الشرق الى الاستعانة بمعارفه الواسعة بعد ان اسندت اليه رياسة الطب في بغداد ثم في مصر والقيروان وقد تعرض لذلك ابن سعيد في الرسالة التي ذيل بها رسالة ابن حزم في « فضل علماء الاندلس » وقد ناب مختلف العلوم والفنون حظها في هذا التبريز فظهر ابن سيده اللغوي المتوفي عام ٤٥٨ هـ وابن عبد البر المحدث الاصولي المتوفي عام ٤٦٣ هـ وابن حيان المؤرخ المتوفي عام ٤٦٩ هـ (صاحب « تاريخ الاندلس » الذي كتبه في ستين مجلدا) وصاعد الاندلس المتوفي عام ٤٦٣ هـ وهو صاحب « طبقات الامم » وابو عبيد البكري الرحالة الاندلسي المتوفي عام ٤٨٢ هـ صاحب « المسالك والممالك » الذي خلف كتابا حول اعشاب الاندلس واشجارها ينقل عنه ابن البيطار فكان روعة في تاريخ علم الطبيعة وظواهرها الغريبة بالاضافة الى ابن العوام الذي لا يوجد لكتابه في «الفلاحة» نظير بل هو كما يؤكد لوكلير (ج٢ ص١١٠) اعظم ما انتجه لا العرب فقط بل حتى العصور القديمة .

وانطلاقا من شتى التاثيرات استطاع ابن زيدون ان يبدع لنفسه اسلوبا في التعبير وطريقة في التفكير ومنهجية في البحث والتنظير عكست سعة ثقافته ونزعته التجديدية في موصولية الاقتباس لربط الحاضر بالماضي وضمان تسلسل معطيات التراث فكان في عمقه فيلسوفا وفي وجدانه الانساني شاعرا كما كان فنانا مبدعا في جمال سبك خيوط الحياة ضمن انعتاقة شاملة من الاسجاع والرسوم والحدود التقليدية فجاءت رسائله جدية كانت ام هزلية لوحة رائعة اشبه ـ كما يقول ابن بسام ـ بالنظم الخطير منها بالمنثور .

وكان الى جانب ذلك كله عالما محققا انطبعت في دراساته دقة الباحث وتلويحات المتحري العارف والتضمينات التي تشف عن استكناه لرقائق العلوم والفنون في مشاركة عارمة كانت ميزة العصور الذهبية شرقا وغربا في ظلال الفكر العربي الذي جمع في رصانته وأصالته أشتات الرصيد الانساني فكان حقا ارتسامة صادقة لنهاية مسار العرفان البشري في ذلك العصر .

ولذلك كان شعر ابن زيدون اقرب الى فسيفساء حدائقي يشع بالنور والنور في رقة مبنى وسمو معنى يترقرق رغم الجفاف ويتدفق رغم الكفاف .

لقد اعطانا ابن زيدون دروسا في التماسك الخلقي والصمود للصدمات عند ما بلغ شعوره بالخيبة مبلغا تحت صفق الاحداث كاد يوقفه على حافة اليأس ولكنه تراجع في عزة واباء بدافع من الكبرياء تارة ودواعي الارث الروحي الحافل بالمكرمات تارة اخرى ولكن شاعريته تفتقت في هذا المجال عن بواده وبوادر جعلت منه فيلسوفا صوفيا استكنه حقائق ودقائق من خلجات النفس البشرية وكشف عن اروع الخبايا في حكم اصبحت امثولات خالدة في شعره ، لقد ادرك شاعرنا بحصافته دولة الحياة وتفاهة الماديات فحلق في اجواء الملكوت فوصف ضلال هذه الظلال التي تلابسنا والاشباح التي تلامسنا ، وكان في انطلاقته واقعيا ليس بالمتفائل الموغل ولا بالمتشائم المقل لكنه أوقل على مواجهة الصعدات في حكمة وأناة .

واذا كان هنالك شاعر بالاندلس تساوق مع شاعرنا في مراحل النكد والرغد وفي تضامين السراء والضراء متأججا

بين الوزارة والسجن والسؤدد والاسفاف فهو ذو الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب فكلاهما قد احتضنته غياهب السجون ولفته ظلمتها بعد العز والسيادة وكلاهما قد تعقبته دسائس الحاسدين في بحبوحة النعمة وكلاهما قد استعطف واستعنف وأسف واستكنف وكلاهما قد تجاذبته مناقضات الاحداث فتكيفت نفسانيته بين الاعتزاز والاهتزاز وكلاهما انتجع في سكون القلب المفجوع الرجعة الى الله في تصوف مفتعل قد يخلص ويصفو احيانا من الكدورات والرعونات وكلاهما عبر عن خلجات نفسه ونبرات قلبه ونزوات فكره في دوامة تتدافع فيها عوامل القوتين النابذة والجابذة في تناقض ينم عن حيرة! يقول ابن زيدون وقد رأى في الدنيا لمع سراب :

ليس الركون الى الدنيا دليل حجى
فانها دول ايامها متع

تأتي الرزايا نظاما من حوادثها
اذ الفوائد في اثنائها لمع

فيجيبه ابن الخطيب :

خذ من حياتك للممات الآتي
قد خودع الماضي به والآتي

لا تغترر فهو السحاب بضيعة
وبدار ما دام الزمان مواتي

والله ما استهللت حيا صارخا
الا وانت تعد في الاموات

أسفا علينا معشر الاموات لا
تنفك عن شغل بهاك وهات

ويغرنا لمع السراب فنغتدى
في غفلة عن هادم اللذات

وفي الصبر يقول ابن زيدون :

هو الدهر فاصبر للذي أحدث الدهر
فمن شيم الابرار في مثلها الصبر

ستصبر صبر اليأس او صبر حسبة
فلا ترض بالصبر الذي معه وزر

فيتجاوب معه ابن الخطيب قائلا :

واصبر على مضض الليالي انها
لحوامل سيلدن كل عجيب

فاذا جعلت الصبر مفزع معضل
عاجلت علته بطب طبيب

فللصبر اولى أن يكون رجوعنا
اذا لم نكن بالحزن نرجع فائتنا

وللرضى عند الشاعرين منبع واحد هو رضى المحبوب ولكن أي محبوب ؟ ظل ابن زيدون حائرا في اختباره بين الحبيب الامثل الاسمى وحبيبة الروح حيث قال :

ان يكن لي أمل غير الرضى
منك لا بلغت ذاك الاملا

غير ان ابن الخطيب اليائس فضل الخالد على الطارف والحق على الزائف فقال :

لا ترج الا الله في شدة
وثق به فهو الذي ايدك

حاشاك ان ترجو الا الذي
في ظلمة الاحشاء قد اوجدك

والقناعة ايضا صنو الرضى في نظر الشاعرين :

ان الغنى لهو القناعة لا الذي
يشتف نطفة ماء وجه القانع

(ابن زيدون)

فاقنع بما اعطاك ربك واغتنم
منه السرور وخل ما لا ينفع

(ابن الخطيب)

واذا كان الشاعران قد اضطرا في غمرة التيارات المعكوسة الى الزهد أو التزهد فانهما طفقا مع ذلك يغذيان أملا رقيقا في انحياشهما عن مقولات العاذلين الى متوبات الانصار الابرار فكل شيء زائل في الدنيا الا حسن الاحدوثة :

فلا ينع منهم هالك فهو خالد
بآثاره ان الثناء هو الخلد

(ابن زيدون)

يمضي الزمان فكل فان ذاهب
الا جميل الذكر فهو الباقي

(ابن الخطيب)

فاعظم الخلق سكينة في وقار :

له عزمة مطوية في سكينة كمـــ

ـا لان متن السيف والخشوشن الحد

(ابن زيدون)

ولك الوقار اذا تزلزلت الربـا

وهفت من الروع الهضاب المثل

(ابن الخطيب)

والشعور بالسكينة نابع من الثقة بالله وحسن الظن فيه والتفاؤل :

يقول ابن الخطيب :

ان كان ماض من زمانك قد مضى
باســاءة قد سرك المستقبــل

هذا بذاك فشفع الثاني الـذي
أرضاك فيما قد جنــاه الاول

ويقول ابن زيدون :

ان قسا الدهر فللماء من الصخر انبجاس
ولئن أمسيت محبوسا فللغيث انحبـاس

غنـــى ، فحســن الظن بــالله ما له

عزيــز ، فصنع الله من حولـــه جنـــد

ولكن الكبرياء يستعيد سطوته فترن نبراته في شعر الرجلين عندما يبرق من جديد وميض الامل فيصبـــح ابن زيدون :

خصني بالادب الله فأعلى فيه شأني

فيردد ابن الخطيب في نشوة الشمل الذي يشطح فـي سكره شطحات الصوفي في غفوته :

رغمت انوفهم بنجـــح وسائلي

وتقطعت انفـــاسهم بصنيعي

وبقوا بما نقموا عـــلى خلائقي

حسدا فراموني بكـــل شنيع

اني اضام وفي يدي القلم الذي

ما كــان طيعه لهم بمطيـــع

ولي الخصائص ليس تابى رتبة

حسبي بعلمي ذاك من تفريعي

واخيرا يستولي اليأس مرة اخرى عـــلى الشاعرين فيقول ابن زيدون وقد أظلم الوجود في عينيه :

مناكيد فعل الخـــير منهم تكلف

اذ الشر طبع ما لهم عنــه ناقل

فان ســترت أخلاقهـــم بتخلق

فكل خضيب لا محالة ناصــل

ويقول ابن الخطيب وقد ثارت في قلبه كوامن الحقد والحزازات :

هو الشر قـــد عم في العالمين

أهل الوهـــود واهـــل الذرى

وهكذا ظل الشاعران في منعكس الجوارف بين تياري الجزر والمد والشعور الصاعد والاحساس الصامد في اروع صوره للانسان في كبواته وصعداته تمثل كفتين تتراجحان ضمن الواقع الحلو المر في هذه الحياة الساخرة الماكرة .

واذا كانت شاعرية الشعراء قد اختــارت خطا في مسارها فان الشاعرين الاندلسيين قد حققا اصابة الانسانية في توازن مقوماتها ، وذلك هو سر عبقريتهما في القدرة على تحريك اوتار الجنان واثارة كوامن الوجدان في لهجة الخليع تارة والمتصوف تارة اخرى ولكليهما لحظات بشرية تنزاح فيها الملكوتية لتخلي المكان للانسانية الاصيلة !

وهكذا ردد ابن الخطيب في آخر خلجاته :

اهيم بهند ما حييت فــان امت

اولى بهند من يهيم بها بعــدي

ويردد ابن زيدون في اروع ما عرفته الانسانية :

ما للمـــدام تديرها عينــاك

فيميل في سكر الصبـــا عطفاك

اما منى نفسي فانت جميعهــا

يا ليتني اصبحت بعض منـــاك

ذلك قليل من كثير أحببنا أن نرسم فيه مجلات التجاذب والتماسك بين شاعرين خاضا نفس الغمار ورميـــا نفس الجمار وطوح الدهر بهما في متاهات الديار متقلبين فـــي فيافي قسوته ومفاوز نقمته ليستعيدا آخر المطــاف المجد التالد والعز الرافد فكانا بين الفينتين سويين في الشعور صنوين في الالفة والنفور انسانين حرك منهما الحدثــان سواكن الجنان فاندفق معين الوجدان لينعكس في ذبذبات اللسان باروع ما عبر عنه الانسان !

عبد العزيز بن عبد الله

مدير عام مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي
الربـــاط

أثر ولّادة ● في حياة ابن زيدون وفنّه

الأستاذة: سلمى الحفار الكزبري

اني ذكرتك بالزهراء مشتـــاقا
والافق طلق ووجه الارض قد راقا

وللنسيم اعتــــلال في اصائله
كأنما رق لي فاعتــــل اشفاقا

والروض عن مائه الفضي مبتسم
كما شققت عن اللبــات أطواقا

كل يهيج لنا ذكـرى تشوقنـــا
اليك، لم يعد عنها الصدران ضاقا

لا سكن الله قلبــا عق ذكركمو
فلم يطر بجنــاح الشوق خفاقا

بمثل هذه المناجاة الرائعة كان ابن زيدون أعظم شاعر عرفته الاندلس يخاطب حبيبته ولادة ويتغنى بها ٠ فاسمحوا لي أيها السيدات والسادة أن أعبر عن شعوري وشعوركم في هذا الاحتفال بذكرى ميلاده الالفي فأقول : ان قلوبنا جميعا تخفق لهذه الذكرى على أجنحة الشوق الى ديار الاندلس ، والى الذين شيدوا فيها حضارة اسـلامية عربية خالدة ، ما زال العالم يرنو اليها باعجاب ٠ وينقب عن كنوزها بتلهف ، ويستجلي من علومها وفنونها القدوة في الابداع والعطاء ، ولا أجد احرى من المغرب باحيـــاء فصول هذه الحضارة اذ انطلق الفاتحون البناة من ثراه الطيب قادمين من أرض دمشق الشام ، واليه عاد احفادهم في القرنين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد ٠ وأنـا لا أبالغ اذ اقول : لا بد لمن يبحث عن جذور الحضــارة العربية الاسلامية في الاندلس من أن يزور المغرب العربي ويتعرف اليه ارضا ومناخـا وتراثا فكريا وفنيـا عبر العصور ٠

السؤال الذي ينبغي أن نطرحه الآن هو التالي : من هي ولادة ؟ وكيف ولماذا كان لها أثر بالغ في حيـاة ابن زيدون الاجتماعية والسياسية والفنية ؟ نعلم انها بنت آخر خليفة اموي محمد بن عبد الرحمن الملقب بالمستكفي بالله، وانه حكم زهاء سنة (٥٢٢ هـ ١٠٢٤ م) ومات مسموما اثر هروبه متخفيا من قرطبة بعد أن ثار أهلها عليه لانه لم يكن أهلا للخلافة والحكم ، ونعلم ايضا انها كانت على خـلاف أبيها قوية الشخصية ، مستقلة الرأي ، حادة الـذكاء ، جميلة متحررة ، وانها ورثت عن أجدادها صفات خلقية رفيعة ، وعن أمها وجدتها لابيها الاجنبيتين ، جمـالا ورقة كانا وليدي الزواج المختلط ، كانت الاميرة ولادة مطبوعة على الشعر ، مولعة بالموسيقى ميالة للانطلاق ، فتحـدت تقاليد البيت الاموي بعد موت أبيها ، وفتحت قصرهــا لاستقبال الادباء والفنانين ، وكبار المعاصرين ، حتـى غدت ندوتها قبلة المعجبين والنقاد في آن معا ، ووصفهـا ووصف مجالسها لنا أكثر من مؤرخ ولكن الآراء اختلفت بين منصفة ومطرية ومتحاملة ، فقال عنها ابن بسـام (في الذخيرة) (يعشو أهـل الادب الى ضوء غرفتهـا ، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها الـى سهولة حجابها ، وكثرة منتابها ، تخلط ذلك بعلو نصاب، وكرم أنساب ، وطهارة أثواب) ٠

أشارت الاميرة الشاعرة الى حرصهـا على التصون بقولهـا :

اني ـ وان نظر الانـام لبهجتي ،
كظبــاء مكة صيدهن حـــرام

يحسبن من لين الكلام فواحشـا ،
ويصدهن عن الخنـا الاسلام ،

أما عن البيتين المشهورين اللذين كتبتهما على عاتقي ثوبهـا :

أنا والله أصلح للمعالي ،

وأمشي مشيتي وأتيه تيها ،

وأمكن عاشقي من صحن خدي ،

وأعطي قبلتي من يشتهيها ،

فقد تحدت ولادة المجتمع والناس تحديا مستهجنا لم يغفره لها أحد ، لا من قبل ولا من بعد ، ترى هل كتبتهما ولادة حبا بالغواية والاغراء ؟ أو تحريضا لغيرة من تحب ؟ او رغبة في لفت الانتباه الى كونها مسترسلة في الحرية والانطلاق ؟ من العسير علينا الوقوف على حقيقة مشاعرها والارجح لدي أن ما كتبه في صدد هذين البيتين المستشرق الكبير « نيكل » هو الصحيح اذ عزاهما ، وعزا تصرفاتها المتحررة الى نزوات الشباب قائلا : « تكاد نزوات ولادة لا تختلف كثيرا عن النزعات التحررية التي تتجلى عند نجوم المسرح والسينما في عصرنا الحديث » .

نحن اذن أمام نجمة من نجوم القرن الخامس هـ - الحادي عشر م - في قرطبة (كانت من الادب والظرف ، وتنعيم السمع والطرف بحيث تختلس القلوب والالباب ، وتعيد الشيب الى اخلاق الشباب) حسبما كتب عنها ابن خاقان . أما شاعرنا الكبير ابن زيدون فقد تعرف اليها اذ ذاك ، وأمسى من رواد ندوتها ، كان شابا وسيما ، نبيلا، وشاعرا ذا مكانة مرموقة ، وسياسيا طموحا ووزيرا في حكومة ابي الحزم ابن جهور يتسلق قمة المجد وهو بعد في مقتبل العمر ، فكيف لا تستهويه ولادة بفتنتها وظرفها ، وكيف لا يأسر قلبه سحرها .

أما الضنى فجنته لحظة عنن

كأنها والردى جاءا على قدر

فهمت معنى الهوى من وحي طرفك لي

ان الحوار لمفهوم من الحور

وكيف لا يهفو قلب ولادة الى ابن زيدون ، وكيف تهيم به وقد اجتمعت فيه كل هذه المزايا والصفات ؟ شأ حب كبير بين هذين النجمين المتألقين في رحاب قرطبة جعلهما أشهر العشاق في تاريخ الاندلس فوهبا لتراثنا الادبي أجمل الشعر بفضله ، وطبع حياتهما وتاريخ عصرهما بطابع مؤثر ورائع ، ومن ينصرف الى دراسة حياة هذين الشاعرين في مختلف مراحلها يقف على ما تخللها من مد وجزر ، ولقاء وفراق ، وابتسام ودمع ، وصفاء وغيرة ، فيهتز للاعاصير التي اجتاحتها ويمتلىء اعجابا بالعاطفة المشبوبة التي ربطت بينهما خلال ثلاثين عاما ، لقد ظل الشاعران العاشقان ينهلان من معين متدفق لم ينضب أعرب عنه ابن زيدون يوم أنشد يقول :

اما هواك فلم نعدل بمنهله

شربا ، وان كان يروينا فيظمينا

ونحن اذا استعرضنا تاريخ العشاق في العالم قلما وجدنا حبا كتبت له الديمومة كالذي عصف بابن زيدون وولادة ، لقد هزت الاميرة الجميلة كيان شاعرنا هزا عنيفا ، عميقا لا عابرا ، فظل اسيرا لهذا الحب الكبير ، وفيا له حتى نهاية حياته ، في حين كانت ولادة متقلبة في مشاعرها ، متناقضة في مواقفها ، لاريب في أنها أحبت ابن زيدون حبا جما حتى العبادة ، ولكن الغيرة التي رافقته عكرت صفوه، اذ كانت من النوع المرضي :

اغار عليك من عيني ومني

ومنك ، ومن زمانك ، والمكان

ولو أني خبأتك في عيوني

الى يوم القيامة ما كفاني !

والغيرة عندما تتجاوز حدود المألوف تؤذي صاحبها وتمهد الطريق للارتياب في نفسه فيتحامل على المحبوب ويقسو ، وقد يتصرف بحمق ، ويحاول الانتقام اما بالصد أو بالغدر ... عبر ابن زيدون عن نفسية حبيبته اذ قال :

أيوحشني الزمان وأنت أنسي

ويظلم لي النهار وانت شمسي ؟

وأغرس في محبتك الاماني

فأجني الموت من ثمرات غرسي ؟

لقـــد جازيت غـــدرا عـــن وفائـي
وبعت مودتــــــي ظلمـــا ببخـــس
ولـــو ان الزمـــان أطـــاع حكمـــي
فديتــــك ـ من مكارهـــــه ـ بنفسي

لقد أثر حب ولادة في حياة ابن زيدون تأثيرا بالغا ، نجد بصماته في حياته الاجتماعية والسياسية والفنية على حد سواء ، وانعكس على تطوراتها انعكاسا واضحا،عرضه لمؤمرات متتالية أقصته عن الحكم ، وزجته في السجن ، ثم أقصته عن قرطبة ، وأما انعكاسه على حياته الفنيةفلكونه فجر ينابيع عبقريته تفجيرا صاخبا استفاد منه تراثنـــا الفكري والفني بما صـــاغ ابن زيدون من روائـــع شعرية ونثرية ، فما من قصيدة في ديوانه الاونجد فيها اثرا لولادة أو لاضطهاده السياسي ، أو لكليهما معا ، واذا عـدنا الى نيكل نقرأ في دراسته قوله « لولا تأثير ولادة في حياة ابن زيدون لفقد الشعر العربي أنفس جواهره » .

أما المؤرخ الفرنسي ليفي بروفنسال فقد كتب يقول « ان ابن زيدون هو المتغني بالحب الذي لا يبـــاري ، وان اتصاله بولادة أوحى اليه قصائد رائعة تتميز بخلوهـــا من البريق المتكلف ، وبتنوع معانيهـــا ، وعذوبة موسيقاها » كما يؤيد هذا الرأي المستشرق الكبير الاســـتاذ اميليو غارثياغوميث وهو من الذين أفردوا لابن زيدون الابحـــاث والدراسات ، وترجموا للاسبانية بعضـــا من قصـــائده

وبعض ما وصلنا من أشعار ولادة ، واذا شـئنا التعرف الى شخصية ولادة وأوصاف جمالها فاننا نجدها في شعر ابـــن زيدون ، ونقف على تفاصليهما في أبيات وقصائد صورتها لنا بدقة ووضوح حتى لكأننا نترشف فتنتها ونستجـــلي معالمها من لوحة زيتية رائعة ، فعندما يخاطبها قائلا :

يا أليـــن الناس اعطافـــا ، وأفتنهـــم
لحظا ، وأعطـــر أنفاسا وأردانـــــا
حسنت خلقـــا ، فأحســن لاتسؤ خلقـــا
ما خـير ذي الحسن ان لـــم يول احسانا ؟

نعلم أن ولادة كانت ممشوقة القوام ، رشيقة الخطى فاتنة النظرات ،وانها كانت سبب نعيمه وشقائه ، وعندما يقـــول :

مفـضض الثغـــــــر لـــه نقطـــة
من عنبـــــر في خـــــده المذهـــــب

يتضح لنا أنه كان لها خال أسودفي خدها وأن أسنانها كانت مفضضة بيضاء ، ووجها بلون الحنطة الذهبية ... واذ يخاطبها منشدا :

وفي السيــــــراء الرقـــم وسط قبابهم
بعيـــد مناط القرط ، أحـــور ، أوطف
تباين خلقـــاه ، فعبـــل منعـــــــم
تأود في أعــــــــــلاه لـدن مهفهـف

يتبين لنا أن عنق ولادة كان طويلا ، وعيناهـــــا حوراوين ، وأهدابها وطفاء وانها كانت ، على رهافة قدها، بارزة الصدر ، ضامرة الخصر وممتلئة الردف ترتدي ثيابا من الحرير موشى بالخز ومخططا . وعندما يصفهاشاعرنا بقولـــــه :

ربيب ملـــك كـــأن اللـــــه أنشـــأه
مســـكا ، وقـــدر انشاء الورى طينـــا
أوصـــــاغـــه ورقا محضا ، وتوجـــه
من ناصـــــع التبر ابداعا وتحسينـــــا
اذا تـــأود آدته رفاهيـــــة
توم العقـــــود ، وأدمتـــــه البرى لينا

نفهم أن بشرتها كانت بيضا كالفضة ، وان شعرها كانذهبيا بلون التبر ،براقا ، وانها كانت تزين صدرهـــا بعقود اللؤلؤ المزدوجة ، وتتغانى بالخلاخيل ، وعندمـــا يصفها منشدا :

له خلق عذب وخلق محسن
وطرف كعرف الطيب أو نشـــوة الخمر
يعلل نفسي مـــــن حـــديث تلـــذه
كمثل المنى والوصـــل في عقـــب الهجر



ابن زيدون

عزيزة هارون

تألق الشعر في أبهى مغانيه   وراح من نبعه السلسال يرويه

وافتن فيه الهوى قيثارة عجبا   تهدي الى الشعر ما يحييي أمانيه

لم يشهد الفجر أندى من غمائمه   لم يعرفِ النجم احلى من لياليه

رنا فهل على أجوائه قمر   كأنما السحر معنى من معانيه

ينساب في اللحن الحانا ملونة   يكاد من سحره يغوي اغانيه

فازينت بالنعيم العذب ايكته   ورف كل جناح رفة التيه

لولا الهوى لم يكن حسن يدلهنا   ولم يكن للسنى فجر ينديه

لولا الهوى آه ما كانت لنا مهج   وانما خلقت للحب تغليه

يا شاعر الحب أترعت الكؤوس طلى   ونهر حبك ما جفت سواقيه

ما باله غص بالنعماء فانسكبت   آهاته من رحيق الحزن تسقيه

ما بال من كان في الايام يسعده   أضحى على تعب الايام يشقيه

يا دامي القلب أذكته مواجعه   لما تغرّب عنه من يفديه

وكيف ينأى هزار عن خميلته   وكيف يهرب شعر من قوافيه

يا ثورة عصفت بالقلب فانتشرت   لالىء الفن تسبيه وتغنيه

أغليت سرك عن سر اكابده   أغليت الفك عن ظن أداريه

تهدي اليه أفانين الهوى نغما ... والهجر يبعده والحلم يدنيه
تراه لو كان غدارا هل اشتعلت ... نجـواك بالالق المخضـل تبكيه
وأنت من أنت فذ في أرومته ... العـز يمـرح تياهـا بـواديـه
وفـارس عربـي همـة وابـا ... وشـاعر همسـات الظـن تؤذيـه
لكنمـا الحب ان أهملت لجتـه ... نأى عن الشاطىء المسحور دانيه
ابا الوليـد واحبب باسمـه علما ... في الشرق والغرب وسم من أياديه
سألت مهدك عن مغناك فأختلجت ... معـالـم العـز تبكيـه وترثيـه
لو كنت حيا لانساك الهوى حدث ... في ذمة العرب فيض من عواديه
قد كنت للوطن الغالي دعـامته ... فصرت دمعـة حـزن في مآقيـه
وفيت حتى نما غرس الوفاء سنى ... وصنت نفسك عن زيف وتمويه
جاءت وفودك تترى والحنين أتى ... وكـل ملتفـة هيمـى تنـاغيـه
تهتـز من شوقها حبـا فيرشـقها ... بالزهر من قلبه والسحر من فيه
هـذي وفـودك في أرض الوفـاء وقـد ... كان الوفاء (رباطا) ، في تجليه
وان غــرته بالمجــد مشـرقة ... لكل مكرمـة في الدهـر تهديـه
مواكب الشعر قد جاءت مكرمة ... والله يكـرم شـعبي في تـآخيـه
اذا توحـد في الجلى فما وهنت ... رماحــه لا ولا فلت مواضيـه
أرنـو اليـه وتضنينـي مواجعـه ... يا ليتني من عذاب السقم أفديه
جراحـه فيّ في عينـي في كبدي ... واننـي ومض جرح كامن فيـه
يا شاعر الجرح مالانت شكيمته ... كأنما الجــرح أعيى من يداويه
وشاعر الحب يفديك الهوى غردا ... مـا زال صوتك يشجيه ويصبيه
وشاعر المجد قـد أغنيته زمنـا ... ولـم تزل نفحـة الذكرى تحييه
أحببت شعرك مـذ كان الصبـا خضلا ... وراح من شـغف قلبـي يغنيـه
شعر توهـج في روحـي يدلهني ... كأننـي حـين أرويـه أرويـه
واليوم أهدي اليك الشعر في نغم ... كـأن روحـك رفت في معـانيه

ندرك أنها كانت بارعة في التزين ، فنانة في اظهار مواطن الحسن فيها ، وانها كانت جذابة الحديث عذبة الخلال ظريفة الخصال •

وديوان شاعرنا حافل أيضا بتصوير شخصيتها وطباعها،ووصف هيامه بها الذي كان يضرمه البعادوالهجر، فمن خلال قصائده نرى أنها كانت قريبة بعيدة تطمع حبيبها فتبادله حبا بحب،ثم تتمتع وتجفو ، فيعاتب ويتألم، ويزداد بها شغفا وتعلقا •

ما صح ودي الا اعتل ودك لي ،

وما أطعتك الا زدت عصيانا

بهذا البيت البليغ الواحد علمنا عن ولادة تقلب الاهواء ، وبه وحده استغنينا عن صفحات من الشرح والوصف والتحليل !

أرى سيداتي وسادتي أن القدر لم يكن بعاشقنا رحيما ، ذلك لان الخلافات نشبت بينهما منذ بداية ولادة الحب ، نعلم أن شاعرنا عرف ولادة في ندوتها يوم كان وزيرا شابا دون الثلاثين من العمر ، وعزبا كما نفهم من رسالته الهزلية ، فوضعته في مكان الصدارة لما كان من علو شأن في الوجاهة والسياسة ، وشهرة في الشعر والادب، وكانت هي يومئذ شابة دون الثلاثين ، وفي أوج تالق جمالها وشهرتها الادبية، يلتف حولها المعجبون، والطامعون في حبها أمثال ، أبو عبيد الله القلاس ، والوزير أبو عامر أحمد بن عبدوس ،فعندما جذب الهوى وابن زيدون تعاهدا على صيانته بالتكتم •

سأقنع منك بلحظ البصر

وأرضى بتسليمك المختصر

ولا أتخطى التماس المنى

ولا أتعدى اختلاس النظر

أصونك من لحظات الظنون

وأعليك عن خطرات الفكر

وأحذر من لحظات الرقيب

وقد يستدام الهوى بالحذر

ولكن القناعة في الحب وهم يتخيله العشاق في باديء الامر سرعان ما يتخطونه في اللقاء والطمع في التملك • يبدو ان ولادة ، استجابت ذات يوم لالحاح الحبيب ولنداء قلبها الهائم به ، فبعثت اليه تقول :

ترقب اذا جن الظلام زيارتي

فاني رأيت الليل أكتم للسر

وبي منك ، مالو كان بالشمس لم تلح

وبالبدر لم يطلع ، وبالنجم لم يسر

هذا البيتان من شعر ولادة وردا في مقطوعة نثرية لابن زيدون نقلتها لنا (تحفة العروس) للتيجاني، وذخيرة ابن بسام وفيها وصف الشاعر ليلة طواها مع حبيبته في نعيم نتمثله عندما نستمع بقصيدة وصف فيها تلك الليلة وختمها منشدا :

يالها ليلة تجلى دجاها

من سنا وجنتيه عن ضوء فجر

قصر الوصل عمرها ، وبودي

أن يطول القصير منها بعمري

ويقول ابن زيدون في مقطوعته النثرية المشار اليها « ولما نشر الصبح لواءه وطوى المليل ظلماءه ، ودعتها وأنشدتها :

ودع الصبر محب ودعك

ذائع من سره ما استودعك

يقرع السن على ان لم يكن

زاد في تلك الخطى اذ شيعك

ياأخا البدر سناء وسنا

حفظ الله زمانا أطلعك

ان يطل بعدك ليلي فلكم

بت أشكو قصر الليل معك

وأخذ ابن زيدون يرسل القصيد تلو القصيد معربا عن حبه وهيامه فذاعت أشعاره الغزلية على ألسنة المعجبين والرواة وملأت الآفاق ، فاذا ما برح به الجوي وألح عليه الشوق أنشد يقول :

يا كوكبــا باري ســناه ســناوه
تزهــو القصــور بــه علــى الافــلاك
قرت وفازت بالخطيــر مــن المــنى
عــين تقــلب طرفهــا فتــراك
أمــا منــي قلبــي فأنت جميعهــا
يا ليتنــي أصــبحت بعض منــاك

فكيف لايتعرف الناس من خلال أمثال هذه القصائد لوجدانية على هوية الحبيبة ؟ كانت صفاتها وخصائصها بارزة في كل ما أنشده الشاعر آنذاك فدلت عليها وأغضبتها نير أن غضبها لم يكن في محله اذ لابد لعاطفة مشبوبة تربط ين شخصين مرموقين ، في أي مجتمع من المجتمعات ، من أن تعرف ،فما بالنا اذا كان الحبيب وزيرا وشاعرا، والمحبوبة ميرة وشاعرة أيضا ؟ قد جاهر ابن زيــدون بحبه ولادة .تفاخر ما دام أمرهما قد ذاع ، على الرغم من وسـائل لحذر جميعا ، واذا كان غضب الحبيبة من هذا الاعلام قد ،اءه فلانها توهمت أن تغزله ووصف شغفه بها أقرب الى التشهير نه الى التمجيد • اعتذر اليها ابن زيدون ما أظــن أن اعرا جاء بمثله في رقة العاطفة وصدق النبرة ،اذ قال :

أنت الحيــاة فان يقــدر فراقك لي
فليحفــر القبــر أو فليحضر الكفــن
والله ما ســاءني اني خفيــت ضني
بــل ساءني أن سـري بالضنى علــن
لو كان أمري — في كتم الهوى — بيــدي
ما كان يعلم — مافي قلبــي — البــدن

ولكنها رفضت الاعتذار بقسوة وكبرياء تحت تأثير سومه الذين وجدوا الفرصة مواتية لايغال صدرها عليه، قد استغل ابن القلاس وابن عبدوس فرصة أول خصام ب بين الحبيبين أبشع استغلال ، ولم يكفا عن تحريضها يه حتى أخذت تنظر اليه بعين جديدة : أخذت ترى فيه بهلف والغرور، والانانية والعقوق، كما ثارت كبرياؤها لدما بر بخاطرها نقده شعرها ذات مــرة ، واعجابــه بجاريتها عتبة ، فظنت أنه بها مستخف ، وبمقامها مستهتر، وقصة اعجابه بغناء جاريتها عتيبة حادثة عابرة ضخمهـا خيال ولادة • ذلك أن ابن زيدون طلب من عتبة في ليلـة وطرب أن تعيد لحنا أعجبه ، وفاته أن يستأذن مولاتهـا ، فاحتدت ولادة وانسحبت من المجلس دامعة بعد أن زجرت جارتها وأمرتها بالانصراف ، وفي هذا قال ابن زيدون :

ومــا ضربت عتبى لــذنب أتت بــه
ولكــنمــا ولادة تشتهــي ضربــي
فــقامت تجــر الــذيل عاثرة بــه
وتمسح طـل الــدمع بالعنــم الرطب

لاريب في أن ابن زيدون أخل بآداب المجلس اذ وضع نفسه موضع صاحبة البيت متخطيا وجودها ، وان هــذه الحادثة تدلنا أبلغ دلالة ، على آداب السلوك التي كانـت سائدة في المجتمع الاندلسي آنذاك ، لقد ثارت ولادة لشدة حرصها على أن يحترم عشراؤها ورواد مجلسها أصول اللياقة ولان الغيرة والاوهام التي جعلتها تظن أنه يستملك جاريتها ويميل اليها •• ويكفينا الاستماع الى الابيات التي أعربت فيها عن تلك النوازع لنقف على قسوتها وتجنيها :

لــو كنت تنصف في الهوى ما بيننــا —
لــم تهو جاريتــي ، ولــم تتخير
وتركــت غصنــا مثمرا بجمالــه
وجنحــت للغصن الــذي لــم يثمر ،
ولقد علمت بأنني بــدر السما
لكــن دهيت ، لشقوتــي بالمشتــري

خصام وعتاب كان من الممكن أن ينتهيا بالمصالحة بين الحبيبين لولا تدخل منافسي الشاعر في حب ولادة ! لم يكتفيا بهذا القدر من افساد الصلة بين الحبيبين بل اتهماه بالمشاركة في هدم ملك أبيها المستكفي بالله ، فصدت عنه وأوصدت دونه قلبها وقصرها ، عندئذ لجأ الشاعر المتيم الى هجو منافسيه فزجر ابن القلاس بقصيدة لاذعة انسحب في أثرها من الميدان ، وهدد ابن عبدوس بقصيــدة اخرى

ادهى ، ولكن ابن عبدوس غالي في التودد الى ولادة ، على خلاف ماكان متوقعا ، وأرسل اليها امرأة تزكية عندهـا طمعا في خطبتها .. مأان علم شاعرنا بهذه الوفادة حتى دفعه الغيظ والاكتئاب الى كتابة الرسالة الهزلية على لسان ولادة وأرسلها الى الوزير ابن عبدوس ، وكلنا يعلـم أن شاعرنا مزق خصمه في تلك الرائعة شر تمزيق، وتهكم عليه أبرع تهكم وجعله مضغة في الافواه ، وموضع تفكه الناس وتندرهم . وكلنا يعلم أن ابن عبدوس كف عن ملاحقة ولادة حتى حين ، وانصرف بكل جهده وحقده ، الى تأليب الامير الحاكم على شاعرنا وحياكة مؤمرة شنيعة عليه لاقصائه عن الحكم ، وعن الحبيبة ، وعن قرطبة نهائيا .

نجحت الرسالة الهزلية في بلوغ الهدف الذي رمى اليه ابن زيدون وكشف لنا اللثام عن عواطفه الانسانية المتناقضة عن حبه وغيرته ، وكرهه واستيائه ومفاخرته مما يدعـو القارىء الى مشاركته مشاركة وجدانية، والاعتراف بأثر ولادة العميق في نفسه وفي انتاجه الفني ، حظيت الرسالة الهزلية باهتمام المؤرخين والنقاد ، قديما وحديثا ، لمـا فيها من براعة في التصوير والسخرية ،وقدرة على التحقير بعد التعظيم،ودلالة على ثقافة ابن زيدون الواسعة،وخياله الخصب ، وتحكمه بناصية اللغة ، ربما كان متأثرا برسالة التربيع والتدوير التي صاغها الجاحظ في السخرية من أحمد بن عبد الوهاب الكاتب البغدادي ، وربما توجد فيهـا ملامح من رسالة ابن حيان في ثلب الوزيرين كما ورد في تعليقات بعض النقاد ، ولكنها تعتبر في مقدمة الرسائل العربية الخالدة ، ولعل أفضل شرح لها كان شرح الشاعر (ابن نباته) في كتابه : (سرح العيون في شرح رسالـة ابن زيدون) . اما المستشرقون فقد أفردوا لها الدراسات وترجموها الى لغات متعددة ، فنشرها (ريسك) في مدينة ليبسيج سنة ١٧٥٥ مع ترجمة باللاتينية ، كما نقلت الى اللغات التركيـة والروسية والالمانيـة والانكليزيـة والاسبانية .

عمد ابن زيدون الى اسلوب المفارقات وطريقـة المقابلات في رسالته فتجلت براعته في رسم لوحات صور فيها خصمه قزما تافها ، ثم خلع عليه حللا فضفاضة من الجمال والبهاء غير مناسبة لحجمه وقياسه ما لبث ان نزعها عنه فجأة مبديا عيوبه وعوراته بشكل مجسم ساخر ، يذكر بالرسوم الكاريكاتورية ، اذا جاز لي اقتباس التعبير . فبعد أن روى غليله منه قائلا بتهكم لاذع : (ايها المصاب بعقله ، المورط بجهله ، البين سقطه ، العاثر في ذيـل اعتزازه ، الاعمى في شمس نهاره ، المتهافت تهافت الفراش على الشهاب) .. أخذ يفخمه ويغالي في مدحه متقمصـا شخصية سفيرته التي أرسلها الى ولادة فقال له : (فانهـا ما قصرت في النيابة عنك ، زاعمة أن المروءة لفظ أنـت معناه ، قاطعة أنك انفردت بالجمال واستأثرت بالكمال ، واستعليت في مراتب الجلال ، وان قارون أصـاب بعض ما كنزت ، وكسرى حمل غاشيتك ، وقيصر رعى ماشيتك، وحاتما انما جاد بوفرك ، ولقي الاضياف ببشرك ، وأياس بن معاوية انما استضاء بمصباح ذكائك ، وسحبان انمـا تكلم بلسانك الخ ..) . بعد كل هذا الاطناب الذي هو في الواقع تحقير مر أخذ ابن زيدون يصور منافسه عـلى حقيقته ، مغاليا هنا ايضا في تشويه صورته ، فخفضـه الى أسفل درك وقال له ، في جملة ما قال : (انك كالمعيدي تسمع به خير من أن تراه ، هجين القذال ، مفرط الحمق والغباوة ، جافي الطبع ، بغيض الهيئة ، كلامك تمتمة ، وحديثك غمغمة ، ودينك زندقة ، فوجودك عدم ، والخيبة كفاء ، وضعتك لشرفي وفاء ، وهـلا علمت أن الخبيـث والطيب لا يجتمعان ؟) .

دبج ابن زيدون هـذا الخطاب التاريخي على لسـان ولادة وارسله الى ابن عبدوس وهـي لا تدري من أمره شيئا ، فكيف لا تنقم ، وكيف لا تغضب ، وقد أصبحت هي ايضا موضع نقد الناس وتندرهم لا سيما بعد أن شهر بها ، في الرسالة ، ومس كرامتها ووصفها بالبغي ظلمـا

وتجنيا ! فبقدر ما كـان ابن زيدون طاغي الشخصية ، عزيز النفس سريع الغضب ، كانت ولادة معتدة بنفسها ، غيورة على كرامتها ، سريعة الانفعـال ، وبقدر ما يكون الحب متمكنا من القلب مترسخا فيه بقدر ما تكون ردود فعل المحبين عنيفة وموجعة ، أقول هذا اذ بدون هـذا الاستنتاج لا أستطيع أن أفهم الدافع الذي حدا بابن زيدون الى التمادي على ولادة بالضرب • أغلب الظن انهما تقابلا بعد تسرب الرسالة الهزلية في المجتمع القرطبي وتعاتبـا عتابا مريرا جرهما الى ثورة من ثورات الغضب الجنونية فضربها وندم بعد ذلك على ما فعل ندما كبيرا عبر عنـه بقصيدة استغفار ارسلها اليها يقول :

ان تكن نالتك ـ بالضرب يدي ـ
وأصـابتك بمـا لـم أرد
فلقد كنت ـ لعمري ـ فاديـا
لك بالمال وبعض الولـد
فثقي منـي بعهـد ثابت
وضمـير خالص المعتقد
ولئن سـاءك يوم فاعلمـي
ان سيتلـوه سرور بغـد

ولكن قلب الحبيبة لم يرق على الرغم من التوسـل والاعتذار ، فقطعت بينها وبينه حبال الود جميعا !•ونحن نستطيع ، بقليل من التبصر في حالة اليأس التي سيطرت على الحبيبين ، أن نتمثل ما أصابهما من احراج وما عانيا من آلام ابان تلك القطيعة الممضة ، وكان لسوء طالع ابن زيدون أن أفلح ابن عبدوس بتلفيق تهمة اغتصاب عقار اشتهابه ، كما أفلح بحمل أمير قرطبة أبي الحزم بن جهور على اصدار أمر بتوقيفه ومحاكمته ، فحوكم شـاعرنا ، خلافا للقوانين المتبعة في الأندلس ، أي من غير أن تترك له الفرصة للدفاع عن نفسه ، فقد ذكر كـل من (ابن بشكوال » و « ابن حيان » أنه منع من تقديم وثيقة خطية تثبت براءته ، وهكـذا زج بابن زيدون في السجن زورا وبهتانا ، وخلا الجو لابن عبدوس عند ولادة ، ولـكن المصادر التي اعتمدناها في هـذه الدراسة تؤكد أنهـا قاطعته لشـدة ما كانت مشمئزة منه ، ومن دنـاءة مؤامراته •

عامان اثنان ، او أقل بقليل ، قضاهما ابن زيدون في السجن بين المجرمين والاشقياء لم يتوقف خلالهما عـن كتابة الروائع النثرية والشعرية ، سواء في الاحتجاج على ظلامته ، او في معاتبة اصدقائه ، او استعطاف الحاكم ، او مناجاة الحبيبة وبث اللواعج • غير انه لم يلق أذنـا صاغية من أحد ، واذا عدنا الى ولادة نجد انها أخفقت في التحرر من حبه ، على الرغم مما حدث بينهما من خلافات ومكايدات ، وهجو وضرب وقطيعة، والدليل على استمرارها في رعاية هذا الحب والحنين اليه نجده في ابياتها التالية :

ألا هل لنا من بعد هـذا التفرق
سبيل فيشكو كل صب بما لقي؟
وقد كنت اوقات التزوار في الشتا
أبيت على جمر من الشوق محرق
فكيف وقد أمسيت في دار قطعة؟
لقد عجل المقدار ما كنت أتقي
تمر الليالي ، لا ارى البين ينقضي
ولا الصبر من رق التشوق معتقي
سقى الله أرضا قد غدت لك منزلا
بكل سكوب، هاطل الودق، مغدق!

أما ابن زيدون الذي أدت به رسالتـه الهزلية الى السجن ، وسلبته منصبه الرفيـع ، وهدمت مستقبلـه السياسي وهو في مقتبل العمر ، فقد ظـل يرسل لولادة القصائد الوجدانية ، تارة ضارعا مستغفرا :

يا بائعا حظه مني ، ولو بذلت
لي الحياة بحظي منه لم أبـع
ته احتمل واستطل اصبر، وعز أهن
وول اقبل، وقل اسمع، ومر أطع

وتارة مشتاقا تعذبه الخشية من غدرها به :

لو كان قولك : (مت) ما كان ردي لا :

يا جائر الحكم افديه بمن عـــــدلا

أبديت لي من أفانين القلى ، عـبرا

ارسلتني في أحاديث الهوى مثـــلا

لم تبق جارحة بالهجر من جســـدي

الا خلعت عليها ، بالضنى ، حلـــلا

فليغن كفك انــــي بعض من ملكت

وليكف طرفك انـي بعض من قتـــلا

ولتقض ما شئت من هجر ومن صلـــة

لا أقض ، ما عشت ، سلوانا ولا مللا

ان كان لي أمـل الا رضاك ، فـــلا

بلغت يا أملــــي ، من دهري الامـلا

وبعد اخفاق مساعيه باستعطاف الامير الحاكم فـر ابن زيدون من السجن بمساعدة صديقه ولي العهد أبي الوليد بن جهور ، والتجأ الى اشبيلية حيث وجد في بلاط بني العباد التكريم الذي هو له أهل ، كان اول ما أرسله منها الى حبيبته النونية الخالدة التي مطلعها :

أضحى التنائي بديلا من تدانينـا

وناب ، عن طيب لقيـانا ، تجافينا

يبدو أن التعبير عن الوجد بالشعر وحده ما كـــان شافيا لحرقة ابن زيدون لانه غامر بالعودة الى قرطبـــة مستخفيا ، وتوقف في ضاحيتها « الزهراء » يبث الاشواق لولادة ، ويراسل الاصدقاء ، ويستعطف الحاكم ، وقد نجح هذه المرة في مسعاه اذ عفا عنه الامير ابو الحزم بن جهور قبل وفاته بأشهر قليلة ، وعندما ولي الحكم ابنه ابو الوليد قرب اليه شاعرنا واعتمده في السفارة بينه وبين ملوك الطوائف المجاورة ، ويرجح المؤرخون انه استرد مودة ولادة ، فـي تلك الفترة ، بدليل اقباله على عمله الجديد بنفس متفتحة بعد أن استرجع منزلته في الدولة وفي قلب الحبيبة ٠ كنا نتوقع أن تكون المحنة اكسبته حنكة ودراية ، ولكن الواقع يشير الى أنه غفل عن خطورة مكائد خصومه ودسائسهم ظنا منه أن الامير الجديد خير عماد له وخير سند ، فمـــا كاد يستمتع باستعادة كرامته ومكانته حتى مني بخيبة أمـــل جديدة اذ فوجيء بعزله من منصبه يوم تباطأ في العـــودة الى قرطبة من بلاط ادريس بن يحيى في (مالقة) حيث كان موفدا بمهمة ، وكما رافق المد والجزر حياة ابن زيدون العاطفية رافق ايضا حياته السياسية فعرضها للاعـاصير والانواء : تلى العزل الجديد صلح مع أمير قرطبة وصفاء ما كاد ينعم به الشريقان حتى قام « بنو ذكوان » بثورة ضد الحاكم في قرطبة أوشكت أن تلفح شاعرنا بنيرانها للصلـة الودية التي كانت تربطه بهم ، فآثر مغادرة قرطبة نهائيا ، اختيارا لا اكراها ، قام بسياحات في الاندلس وأرسـل من (بلنسية) قصيدة رائعة الى الحبيبـــة ضمنها لوعـــة الفراق :

يا دمع صب ما شئت ان تصوبا

ويـــا فؤادي آن ان تـــذوبا

قد ملأ الشوق الحشا ندوبـــا

في الغرب اذ رحت بـه غريبــــا

عليل دهر ســــامني تعذيبا

ادنى الضنى اذ أبعد الطبيبـــا

ان قرت العين بان أءوبـــــا

لم آل أن أسترضـــي الغضوبا

حسبي أن احرم المغيبـــــا

قد ينفــع المذنب أن يتوبـــا

وعندما ادركه العيدان ، عيد الفطر وعيد الاضحى ، في مدينـــة بطليوس حيث قضى أشهرا أربعة دامي القلب هاجته الذكريات فأرسل اناته في قصيدة مشجية جاء فيها :

خليلي لا فطر يسر ولا أضـحى

فما حال من أمسى مشوقا كما أضحى

لئن شاقني (شرق العقاب) فلم أزل

أخص بممحوض الهوى ذلك السفحا

كأني لم اشهد لدى (عين شهدة)
نزال عتاب كان آخره الفتحا
معاهد لذات ، وأوطـــان صبوة
أجلت المعلى في الاماني بها قدحـا

وكان شاعرنا المشرد يزداد حنينا،وشوقه يزدادتأججا كلما نأى عن الوطن والاهل والاحبة لاننا نجدفي ديوانهعدة قصائد مؤثرة أنشدها يوم كان نازحا عنهم ، تتميز جميعا بامتزاج الالم بالامل •

هـــل تـــذكرون غريبـــا عـــاده شجن
من ذكركـــم ، وجفا أجفانـه الوسن ؟
يخفى لواعجـــه والشـــوق يفضحـــه
فقد تساوى لديـــــه ، السر والعلـــن
يا ويلتـــاه ، أيبقـــى في جوانحـــه
فـؤاده ، وهـــو بالاطـــلال مرتهـــن
ما أرق العيـن ، والظلماء عاكفـــة
ورقاء ، قـــد شفـهـا ، اذ ، شفنـي حزن
فبت أشكو وتشكـــو فوق أيكتهـــا
وبـات يهفو ارتياحـــا بيننا الغصـــن
ان كان عادكـم عيـــد ، فرب فتـــى
بالشوق قـــد عاده ، من ذكركـم ، حزن
وأفـردتـــه الليالـــي مـــن أحبتـــه
فبات ينشـــدها ، ممـــا جنى الزمـــن
(بـم التعـلل ؟ لا أهـل ! ولا وطـن !
ولا نديـم ! ولا كأس ! ولا ســـكن !)

البيت الاخير من هذه القصيدة مقتبس ، كمانلحظ، من قصيدة للمتنبي ،تأكيدا لآلام شاعرنا لذا يحق لنا أن نعرف لم اختار لنفسه هجرة ثانية من قرطبة ؟ نعته ابـن حيان بالكبرياء والولع بالذات في حين أن ايثاره الهجرةمن وطن خلق لان يكون في أعلى مراتبه الاجتماعية والفنيـــة والسياسية ، سببا آخر هو ما فطر عليه من عزة واباء ،لقد كتب يقول في (الرسالة البكرية) مايؤيد هذا الرأيويصور لنا حقيقة مشاعره : (ولم استجز أن أكون ثالث الاذلين العير والوتد ، ونظرت في مفارقة الوطن والبين عن الاحبة فتبين لي أن ايجاش نفسي بانباس أهلي ، وقطعها في صلة فتبين لي أن ايحاش نفسي بايناس أهلي ، وقطعها فيصلة وطني ، غبن في الرأي ، وخور في العزم ، ووجدت الحـر ينام على الثكل ، ولاينام على الذل) • كما تتجلى لنـا انفته في قصيدته الطائية التي يقول فيها :

شـحطنـــا ، ومـــا للدار نأي ولا شحط
وشط بمـــن نهوى المزار ، وما شـــطوا

اننا نستنبط منالاثار النثريةوالشعرية التي صاغها ابن زيدون في هجرتيه عن قرطبة اللتين دامتا زهاء عشرين عاما عمق آلامه ، ومدى الصراع الذي كان يكايده ، والوفاء للحبيبة الني ظل يحمله ، كان أثرها في حياته وفي فنـــه عميقا غير اننا نلحظ أن فشله في هذا الحب جعله يقسـو على المرأة عوضا من أن يضعها في أرفع منزلة ، ولا يغيب عنا أن البون شاسع بين تكريم النساء عامة حبا في المرأة ، واعلاء لشأن الحبيبة ، وبين تبجيل الحب ذاته كما فعل ابن زيدون في نونيته الخالدة اذ قال :

ما ضر ان لم نـــكن اكفـــاءه شرفا
وفي المودة كـــاف من تكافينـــا

ولا احسب أنه وجد بين شعرائنا القدامى من جعل الحب يسمو بحامله الى اشرف المراتب كما فعل ابن زيدون غير أنه مجد الحب ونفسه أكثر مما مجد المرأة وولادة في شـــعره •

ان مالدينا من قصائد انشدها في ولادة ، وأبيـــات استهل بها روائعه الاخرى يشكل جزءا كبيرا من ديوانـــه النفيس ويدعونا الى الاقرار بأنه لم ينل ماهو جدير بـه من التقدير ، على الرغم من افتتان الناس به ، وان العلامة الاستاذ (اميليو غارثيا غومث) لم يكن مغاليا عندما قال (عرف الشعر العربي اتجاهـــا كلاسيكيا جـــديدا على يد شاعرين من أعظم شعراء العربية هما المتنبي وابن

زيدون ، فنحن لا ننكر أنه أعطانا شعرا غنائيا وجدانيا مزج فيه حبه للمرأة بحبه للطبيعة ، متأثرا بالبيئة الاندلسية طبيعة ريا ، وفكرا منطلقا مما جعل الرواة يلقبونه ببحتري الاندلس لرقة جرسه ، وجزالة سبكه ، وموسيقى قصائده :

يا قاطعا حبل ودي
وواصلا حبل صدي
لو كان عندك مني
مثل الذي منك عندي
لبت بعدي مثلي
وبت مثلك بعدي

وشبهه آخرون بالرونطيقيين الذين اشتهروا بالتغلغل الى أعماق الذات ، وتصوير عواطفها ، وانطلاق العنان لخيالهم ، وربط خلجات نفوسهم بمشاهدة الطبيعة ، لقد سبقهم شاعرنا بخمسمائة سنة اذ كان يترجم لنا نفثات حبه ووجده ، وانعكاسات وومضات مشاعره المتنوعة بقصائد خالدات مازالت الاجيال المولعة بالفن والجمال تتناقلها انشادا ، ودرسا وتحليلا ، وصف (لامارتين) في قصيدته (البحيرة) جمال الطبيعة وروعة الماء والسماء في مناجاة عاطفية مؤثرة ولكنه وجد ذلك الاطار كله كالارض الجدياء لغياب الحبيبة عنه ، ولعل التقاء الخواطر لدى العظماء هو التفسير الوحيد لما ورد عند ابن زيدون في المعنى ذاته قبل خمسة قرون عندما أنشد يقول :

يا من غدوت به في الناس مشتهرا
قلبي عليك يقاسي الهم والفكرا
ان غبت لم ألق انسانا ليؤنسني
وان حضرت فكل الناس قد حضرا

توارد خواطر ليس غير ، اذ لم يترجم ابن زيدون للفرنسية في حياة لامارتين الذي أدى المعنى ذاته

حتى في سجنه لم ينس شاعرنا الطبيعة ، فاذا تسلل القمر الى غرفته ،او أمعن الليل في الظلام أثار فيه كوامن الذكريات فدعته الى تشبيه نور القمر بسنا وجه ولادة والى اشجى التمني كي يتمكن من اعادة حلكة قلبه وبصره حتى يستمر الليل ويستمتع بالحبيبة أكثر ، فلنستمع الى مطلع قصيدة بعث بها من السجن الى أمير قرطبة شاكيا مستعطفا:

ما جال بعدك لحظي في سنا القمر
الا ذكرتك ذكر العين بالاثر
ولا استطلت ذماء الليل من أسف
الا على ليلة سرت مع القصر
فليت ذاك السواد الجون متصل
لو استعار سواد القلب والبصر

وكما اقترنت صورة الحبيبة الغائبة ، وذكريات لقاءاتها بصورة الطبيعة اقترنت كذلك ألحاظها ورشاقتها عند ابن زيدون بالمدام ، وتأثيرها في نشوة الروح ، ولعل من أجمل أبياته في هذا الصدد تلك التي ناجى بها ولادة عندما أرسل الى صديقه الامير أبي الوليد ابن جهور التهنئة بتسلمه الحكم :

ما للمدام تديرها عيناك
فيميل في سكر الصبا عطفاك ؟
هلا مزجت لعاشقيك سلافها
ببرود ظلمك ، أو بعذب لماك
واها لعطفك ؟ والزمان كأنما
صبغت غضارته ببرد صباك
أما منى نفسي فأنت جميعها
يا ليتني أصبحت بعض مناك !
يدنو بوصلك حين شط مزاره
وهم أكاد به أقبل فاك
ولئن تجنبت الرشاد بغدرة
لم يهو بي في الغي غير هواك
ما الورد في مجناه سامره الندي
متحليا الا ببعض حلاك

كـلا ولا المسـك النمـوم اريجـه
متعطـرا الا بـوسـم ثنـاك

وأنا لاأغالي اذ أقول،ان شاعرنا ظل على هذه الحال من التشوق والوجد حتى نهاية حياته ، صحيح ان الاحداث صقلته ابان هجرته الثانية الى اشبيلية وان التجارب حنكته ودرأت عنه الشرور والخصومات الجديدة في بلاط بني العباد لاسيما بعد أن أصبح فيه وزيرا ومستشارا ، وكاتب ديوان شخصي ، ومن ثم قائدا للجيش ، ولكن ما لا شك فيه ان المناصب الرفيعة كلها والامجاد السياسية لم تثنه عن الحنين الى قرطبة حيث كانت تقيم ولادة حبه الاول والاوحد ! وعندما وسع المعتمد بن عباد ملكه في غربي اسبانيا وجنوبها أوكل الى ابن زيدون مهمة فتح قرطبة فقاد شاعرنا الذي كان يسمى :« ذا الوزارتين » جيشا كبيرا ، وانتصر على أميرها بعد أن تجاوز الخامسة والستين من العمر ، غير أنه ما كاد يستقر فيها بين أهله وعشيرته والحبيبة حتى ثارت في اشبيلية فتنة خطيرة استدعت تكليفه بالعمل على احباطها لما يتمتع به من كياسه وحسن تدبير ٠ فاستجاب لامر المعتمد على الرغم من اعتلال صحته وقتئذ ، وماكاد يتم مهمته حتى الحت عليه العلة وتوفي في اشبيلية (سنة ٦٣ ه ــ ١٠٧٠م) ٠وليس بمستغرب أن يستبد الحزن في نفوس أهل قرطبة عندما وصل اليها نعيه ، أما ولادة فقد أسلمت الروح بعد وفاته بسبعة عشر عاما قضتها في غمرة الاحزان ووحشة العزلة، ولا ندري فيما اذا ساورها الشعور يوما بأنها خلدت بخلود ابن زيدون ، ولابد من الاشارة الى أن شاعرنا تزوج، بعد هجرته الى اشبيلية على الارجح، ورزق ولدين بنتا ماتت عنه فتقبل التعازي فيها دون أن يعيد عبارة قالها في ذلك الموقف المحزن ، كما روى لنا الصفدي ، وابنا عهد اليه المعتمد بالوزارة وولاية اشبيلية عقب موت ابن زيدون :أما ولادة فلم تتزوج ولم تلد ٠ انما ولدت في قلبه عظيما ، شغل عمره كله فأعطانا بفضله ديوانا

ما زالت نفوسنا تمتلىء اعجابا به ،وتهتز طربا لقصائده بعد انقضاء ألف سنة تقريبا من تاريخه ٠ فالشعر أقدس ألوان التعبير عن الاحاسيس الانسانية ، ويتميز الرائع منه والخالد بالاناقة في الاسلوب ، والغنى في المعاني ، والرشاقة في الايقاع ويتضمن فكرة ولوحة في كل بيت وقصيدة تنقلنا الى اجواء الشاعر ، وتدعونا للاسهام في رؤيته التصويرية ، وصدق عواطفه ، وعمقها ٠ فالشعر كان ومازال انشودة النفوس المتطلعة الى الخير والجمال والحق ، واللغة العالمية الفضلى التي لاتحتاج الى ترجمة، ولاتعترف بحدود ، فالانسان هو هو في كل زمان ومكان ، والشعراء هم رسل المحبة والجمال الى اخوتهم في الانسانية وخير من يعبر عن الآلام والافراح والاماني ، وعن نزوع الروح الى الكمال ، وبحثها عن كنه الوجود وأسرار الطبيعة

أما الحب، تلك العاطفة السامية التي يتساوى عمقها ببساطتها ولاتحتاج الى الفلسفة والتعقيد لفهمها ، فلقد غرسه الخالق في قلوبنا كي يبعث فينا الايمان والعزاء ، ويستدر من نفوسنا الخير والحق ، ويضفي عليها حلل الجمال ولا يزال خلاقا للمواهب ، بناء للحضارات ، رافعا من قدر الامم والافراد ٠ لولاه لما تألقت العبقريات في كل حدب وصوب عبر العصور ،ولما اعطت للانسانية والحضارة ثمراتها الفكرية والوجدانية الذكية التي تنسينا انواع الشقاء ، بالحب وحده كانت معجزة العطاء لانه قادر بسحره وجبروته على تحويل الصحراء الى رياض مزهرة وطفاء ، قالوا ان الحب شعلة مقدسة تظهر بنارها، وتهدي بنورها ، وكثرت فيه الاقوال وتنوعت ، منذ أن اكتشف الانسان النطق والحرف ، وأنا أقول : الحب هو الجناح الذي يهبه الخالق لنا حتى نستطيع به عبور الجنان والاقتراب منه ، وأما عن الحب الذي ربط قدر ابن زيدون بولادة ، واستحوذ على قلبه ولبه حتى جعله لايفتتن بغيرها ، ولا يتغزل ويناجي سواها فانه معجزة لا أستطيع وصفها ومن يدعي الالمام بالمعجزات ،وتعليلها يكون دعيا مفترا :

انت معنـــى الضنـــى وسر الدمـوع
وسبيـــل الهـوى وقصـد الولـــوع
أنـت والشمـس ضرتـــان ولكـــن
لك ، عنـــد الغـــروب ، فضل الطلوع

اننا ايها الاصدقاء نحتفل بابن زيدون على أرض المغرب مع أنه لم يعرف لا المشرق ولا المغرب العربي ،غير انه حملهما في شغاف قلبه فعبقت بهما عبقريته عبيرا وأصالة بقصائد تصفق لها المهج والارواح ، فهو مخزومي من جهة أبيه ، وبنو مخزوم بطن من بطن قريش ، وهو قيسي من جهة أمه وسليل فقهاء وعلماء مرموقين منحدرين من قبيلة قيس عيلان ، وما أقول عن ابن زيدون ينطبق على ولادة بنت المستكفي بالله ، فهي سليلة البيت الاموي الدمشقـــي العربي الاصل والمنبت، والانسان هو ابن الاجداد والجدات بقدر ما هو ابن البيئة والعادات ، كان كلاهما اذن عربيا بدافع عوامل العرف ، واللغة والتقاليد المتوارثة ، وكـان كلاهما أندلسيا بمؤثرات البيئة الجغرافية والاجتماعيـة والمناخ العقلي والفني الذي عاشا فيه ، وانبثق عن تلاقي الحضارة الاسلامية بتربة الغرب وأجوائه الفسيحة ـ وعندما زرت هذه المملكة الجميلة في سنة ١٩٦٧ جئت اليها مـن الاندلس مباشرة بعد انتهاء المهرجان الذي أقيم فيها تكريما للعالم الفيلسوف ابن رشد ، كانت سعادتي في تلك الزيارة مضاعفة : أولا لاكتشافي كل مؤنس وجميل وأصيل ، مـن فنون وآثار وتقاليد ، وثانيا لان ذلك الاكتشـاف جعلنـي أشعر أنني مازلت في ديار الاندلس ، أما اليوم ، ونحـن نقضي في المغرب أياما هانئة ، ترفرف عليهـا روح شاعرنا العظيم وأميرتنا الساحرة فقد بت لا أدري حقا هل كانـت الاندلس امتدادا لهذا البلد العريق ،أو هل ما نستمتع به كل يوم في رحابه هو امتداد لفردوسنا الخالد ؟

وما دمنا في نهاية حديثنا عن الحب والشعر اسمحوا لي بأن أرسل من هذا المنبر رسالة حب واكبار الى هـــذا البلد المضياف وشعبه العظيم ، وعلمائه وأدبائه وفنانينه، وتحية أخوة واعجاب الى مواقفه العربية والاسلاميـــة المشرفة التي تحدو به ، دائما وأبـدا ، الى تـــكريم العلم والفن ، واحياء التراث ، والتقريب بين الاشقاء •

وبدلا من أن أوجه عبارات الشكر اليكم التي أجدها عاجزة عن ترجمة حقيقة مشاعري ألجأ الى ابن زيـدون لاستعير قوله :

ليـــ ق عهـــدكم ، عهـد السرور ، فما
كنتـــم لارواحنـــا الا رياحينـــا !

سلمى الحفار الكزبري

الفردوس المفقود

بقلم

محمد أحمد المحجوب

نزلت شطك بعد البين ولهانا
فذقت فيك من التبريح ألوانا
وسرت فيك غريبا ضل سامره
دارا وشوقا وأحبابا واخوانا
فلا اللسان لسان العرب نعرفه
ولا الزمان كما كنا وما كانا
ولا الخمائل تشجينا بلابلها
ولا النخيل ، سقاه الطل يلقانا
ولا المساجد يسعى في مآذنها
مع العشيات صوت الله ريانا
كم فارس فيك أوفى المجد شرعته
وأورد الخيل وديانا وشطآنا
وشاد للعرب أمجادا مؤثلة
دانت لسطوته الدنيا وما دانا
وهلهل الشعر زفزافا مقاطعه
وفجر الروض أطيافا وألحانا
يسعى الى الله في محرابه ورعا
وللجمال يعد الروح قربانا
لم يبق منك سوى ذكرى تؤرقنا
وغير دار الهوى أصغت لنجوانا
أكاد أسمع فيها همس واجفة
من الرقيب تمنى طيب لقيانا
الله أكبر هذا الحسن أعرفه
ريان يضحك أعطافا وأجفانا
أثار في شجونا ما كنت أكتمها
عفا واذكر وادي النيل هيمانا
فللعيون جمال سحره قدر
وللقدود اباء يفضح البانا
فتلك دعد سواد الشعر كللها
أختي لقيتك بعد الهجر أزمانا
أختي لقيتك لكن أين سامرنا
في السالفات فهذا البعد أشقانا
أختي لقيت ولكن ليس تعرفني
فقد تباعد بعد القرب حيانا
طفنا بقرطبة الفيحاء نسألها
عن الجدود وعن آثار مروانا
عن المساجد قد طالت منابرها
تعانق السحب تسبيحا وعرفانا
وعن ملاعب كانت للهوى قدسا
وعن مسارح حسن كن بستانا
وعن حبيب يزين التاج مفرقه
والعقد جال على النهدين ظمآنا
أبو الوليد تغنى في مرابعها
وأجج الشوق نيرانا وأشجانا
لم ينسه السجن أعطافا مرنحة
ولا حبيبا بخصر الدل نشوانا
فما تغرب الا عن ديارهم
والقلب ظل بذاك الحب ولهانا
فكم تذكر أيام الهوى شرقا
وكم تذكر أعطافا وأردانا
قد هاج منه هوى ولادة شجنا
برحا وشوقا وتغريدا وتحنانا
فأسمع الكون شعرا بالهوى عطرا
ولقن الطير شكواه فأشجانا
وعاش للحسن يرعى الحسن في وله
وعاش للمجد يبني المجد ألوانا
تلك السماوات كناها نجملها
بالحب حينا وبالعلياء أحيانا
فردوس مجد أضاع الخلف روعته
من بعد ما كان للاسلام عنوانا
أبا الوليد أعني ضاع تالدنا
وقد تناوح أحجارا وجدرانا
هذي فلسطين كادت والوغى دول
تكون أندلسا أخرى وأحزانا
كنا سراة تخيف الكون وحدتنا
صرنا الغداة لاهل الشرك عبدانا
نغدو على الذل أحزابا مفرقة
ونحن كنا لحزب الله فرسانا
رماحنا في جبين الشمس مشرعة
والارض كانت لخيل العرب ميدانا
أبا الوليد عقدنا العزم أن لنا
في غمرة الثأر ميعادا وبرهانا
الجرح وحدنا والثأر جمعنا
للنصر فيه ارادات ووجدانا
لهفي على القدس في البأساء دامية
نفديك يا قدس أرواحا وأبدانا
سنجعل الارض بركانا نفجره
في وجه باغ يراه الله شيطانا
فيمحى العار في رأد الضحى وترى
أن العروبة تبني مجدها الآنا

تحية ابن زيدون



د. عاتكة الخزرجي

سر بنا على اسم الله نستعجل الخطى
فيا طيبه مسرى بنا ورحيلا
وقلنا عسى نلقى الاحبة في غد
وأين غد والصبر بات قليلا
أحبتنا بين الرباط وطنجة
وفاس سلاما للقاء جميلا
كحلنا بمرآكم عيونا تشوقت
اليكم على بعد المزار طويلا
ودسنا على الارض الطهور بجانح
من الشوق وخذا تارة وزميلا
أحبتنا هذي الرباط محجة
تراءت ووجها للبيان أصيلا
تقصدها القصاد من كل جانب
يحيون فيها للقصيد رسولا
ويحيون ذكرى لابن زيدون انها
يد سوف تملي في الوفاء فصولا
أحبتنا هذي الوفود بأرضكم
حجيج تداني منزلا وقبيلا
به غلة من لاعج الشوق هل انى
له بعد لاي أن يبل غليلا ؟
أحبتنا بين الرباط وطنجة
وفاس سلاما ما حييت جميلا

تعالوا نقف للشعر للحب للصفا
لمن كان معنى في الحياة نبيلا .
لمن كان عبدا للحسان وعابدا
ومن كان منها نائلا ومنيلا
تعالوا نقف « للقرطبي » وقد مضت
به الالف وليصغ الزمان قليلا
تعالوا معي حيوا ابن زيدون طوفوا
به في خشوع بكرة وأصيلا
تعالوا معي نزجي الوفاء لراحل
وأحسبني ان لن أقيم طويلا
وأحسبني اني سألقاه في غد
فأروي له مما وعيت فصولا
أحبتنا طاب المقام بظلكم
وهل كان الا للفؤاد مقيلا .. ؟
وردنا به ماء الوداد مرقرقا
وكم قبل أسقينا الوداد دخيلا ..
لقينا بكم روحا شميما ومنزلا
كريما وظلا للكرام ظليلا ..
وانا وان حم التفرق في غد
على العهد.. عهد الله كان جميلا..

قراءة مستأنية لنثر ابن زيدون

الدكتور مصطفى الشلعة

تمهيـــد :

ألف الناس أن يقرأوا شعر ابن زيدون ، فيذهبوا في الاعجاب به كل مذهب ، يرددونه ترديد المستحسن لساحر النغم ، ويحفظونه حفظ الصب المشوق لترانيم العاشقين، فسارت قصائده – وبخاصة تلك التي قالها في ولادة بنت المستكفي – مشرقة ومغربة ، تجري على كل لسان ، وتتردد على كل الشفاه ، تزين مجالس الادباء ، وتطرز منتديات العلمـــاء •

واي صاحب ذوق فني لايحني الرأس اجلالا «للنونية» الفريدة الخالدة في جبين الشعر العربي ، تلك القصيدة التي عارضها اكثر من شاعر كبير وتزاحمت حولها وحول من يحفظها أساطير وخرافات ، هي ولا شك صدى رنان لتأثر جارف وقر في خواطر المعجبين بها بحيث نسجواحولها مانسجوا من قصص وتصورات واساطير وأخبار •

وأي محب لا ينثني طربا ولا يذوب تشوقا للقافية الفاتنة :

انى ذكـرتـك بالزهـراء مشتاقـا
والافق طلق ومـرأى الارض قـد رأقا
وللنسـيم اعتـلال في اصائلـه
كأنـه رق لـي فاعتل اشفاقـا

او قولـه :

أيوحشـني الزمـان وأنت أنسي
ويظلـم لـي النهار وانت شمسـي
واغرس في محبتـك الامانـي
فاجنـي المـوت مـن ثمـرات غرسـي

او قوله ، متشوقا الى ولادة وهو يطوف في ربوع الاندلس وكان اذ ذاك في بلنسية :

غـريب بأقصى الشرق يشكو للصبـا
تحملهـا منـه السـلام الى الغـرب
وما ضر أنفاس الصبـا في احتمالهـا
سـلام هوى يهديـه جسم الى قلـب

أو قوله ، وقد نصب نفسه زعيما على العاشقين ، له وحده الثلثان دونهم وللبقيـة من عشاق الدنيا ثلث واحـد !

أخذت ثلث الهـوى غصبـا ولي ثلـث
وللمحبـين فيمـا بينهـم ثلـث
تالله لـو حلـف العشاق أنهـم
موتـي من الوجد يـوم البين مـا حنثوا
قوم اذا هجروا من بعـد ما وصلـوا
ماتوا فان عـاد مـن يهوونـه بعثوا
ترى المحبـين صرعي في عراصـهم
كفتيـة الكهـف لا يدرون ما لبثـوا

لقد كان شعر ابن زيدون ولا يزال انيس كل أديب ومادة كل دارس وغاية كل شاعر ، وعبرة كـل محب وسلوى كل صب ، وامل كل ناشىء ،وروضة كل فنان •

أما وان الامر كذلك فقد حجب هذا الرنين العذب والايقاع الجميل موهبة أخرى لابن زيدون ، ونعني بهـ

موهبة « النثر » ذلك الفن الرفيع المتصل الاسباب بالصفوة المختارة من بلغاء العربية وكتابها ، وهو فن خلب العقول واستولى على اعجاب كثيرين من أدباء العربية بحيث فضله كثير منهم على الشعر على الرغم من ان الشعر اكثر التصاقا بالقلب وادنى اقترابا من النفس ، وهو فيض العاطفة المشبوبة، وعطاء الخاطر الدفاق ، وانه لما لا شك فيه ان شخصيات كبار الكتاب والناثرين لتعلو درجات على أقدار بعض كبار الشعراء المتفوقين،وحسبك من ذلك أسماء عبد الحميد والجاحظ وابن العميد وبديع الزمان والقاضي الفاضل •

لقد اجتمع لابي الوليد بن زيدون فضل التربع على قمة الشعر ومزية تملك ذروة النثر وهو والامر كذلك واحد من قلة قليلة من اعلام العربية جمعوا بين الابداع في الشعر والامتاع في انشاء النثر نذكر منهم في المشرق : كلثوم بن عمرو المشهور بالعتابي ، وابراهيم الصولي ، وابا اسحاق الصابي ، وابا الفرج الببغاء ، وأبا الفتح كشاجم ، وكان الثلاثة الاخيرون متعاصرين وقد جرت بينهم مطارحات شعرية ونثرية بارعة ، وربما أضفنا الى هذه القافلة من الكتاب الشعراء عملاقا آخر من عمالقة الشعر والنثر هو أبو العلاء المعري وان كان نثر المعري مختلفا على تقويمه من حيث كونه متحفا للالفاظ الوعرة الأمر الذي جعل بعض الدارسين يضعونه موضعا خاصا اذا ما طبقت عليه مقاييس النقد ومعايير البلاغة •

أما في الأندلس فان النابهين الذين جمعوا بين ذروتي الشعر والنثر يقلون عددا عن نظرائهم المشارقة ، ولعلنا لا نجاوز حدود النصفة اذا ما حصرنا أشهرهم في ثلاثة أعلام ابتداء بأبي عامر بن شهيد وانتهاء بلسان الدين بن الخطيب ، جاعلين أبا الوليد بن زيدون واسطة العقد بينهما ، وان كنا لا نغفل عددا من الأسماء التي أسهمت في هذين الفنين غير أن مرتبتهم الفنية تقع في مرقاة أدنى ودرجة أقل •

ان ابن شهيد لا يأتي في موكب الادب في مرتبة ابن زيدون ، فشعره على رونقه دون شعر أبي الوليد ، وأما نثره فهو على أناقته وديباجته تنقصه أسباب العمق ، ويفتقر الى روافد الثقافة ، ذلك أن عدة الكاتب ثقافة عريضة واطلاع وعلم بالتاريخ واحاطة بالاحداث واقتناص للمعرفة واقتناء للكتب ، وهذه الخاصية الأخيرة تكون له مددا موصول الأسباب تربط بينه وبين كل ما أنتج العقل في الحقب الماضية والمراحل المعاصرة على حد سواء ، وأبو عامر فيما يذكر ابن بسام عن ابن حيان « كان يدعو قريحته الى ما شاء من نثره ونظمه في بديهته ورويته ، فيقود الكلام كما يريد من غير اقتناء للكتب ، ولا اعتناء بالطلب ، ولا رسوخ في الأدب ، فانه لم يوجد له — فيما بلغني — بعد موته كتاب يستعين به على صناعته ، ويشحذ من طبعه الا ما قدر له » •

فابن شهيد والحال كذلك كان في نثره أقرب الى الشعر ، وكان يعتمد الخيال والتأمل مصدرا وموحيا أكثر من اعتماده العقل والمعرفة ، وهو من أجل ذلك قد كتب رسائل فكاهية وأخرى هازلة ، بعضها طويل وبعضها قصير ، عامدا فيها الى معارضة مشاهير الكتاب المشارقة الذين سبقوه زمانا ، هذا وان رسالته المعروفة « بالتوابع والزوابع » على ما ضمت من أسباب الابداع الفني الذي دعانا لأن نقف عليها وقفة فاحصة في بعض مؤلفاتنا ليست الا صدى دقيقا لبعض مقامات بديع الزمان الهمذاني •

أما لسان الدين بن الخطيب فهو بدوره — على ما أسلفناه — أحد المتملكين لناصيتي الشعر والنثر ، غير أن شعره دون شعر كل من أبي عامر وأبي الوليد ، وان كان قد تفوق عليهما بفن التوشيح وابداعه فيه ، أما في حقل الكتابة فلعل الانصاف يدعونا الى ربطه بفن الكتابة العلمية أكثر من نسبته الى الكتابة الفنية ، ذلك أن لسان الدين أحد أعلام التأليف في الأندلس وأن كتبه

العديدة النفيسة الثرية بموضوعاتها ومناهجها وأسلوبها ومحتوياتها لمما تجعل كل عالم وأديب يحني الرأس اجلالا لهذا العالم الذي جعل أيامه ولياليه – دون نوم الا لماما – مقسمة بين الحكم والشعر ، موزعة بين السياسة والتأليف ، لقد كان لسان الدين يخصص نهاره كلاما للحكم وادارة شؤون الملك ، ويخصص ليله كله للكتابة والشعر والتأليف الأمر الذي جعل أصحاب الاخبار يطلقون عليه لقب « ذي العمرين » .

واذا كان للسان الدين عدد من الرسائل الفنية فانها لا تشكل الا القليل بالقياس الى انتاجه العلمي النفيس العريض من أمثال الاحاطة في تاريخ غرناطة ، الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ، اللمحة البدرية في الدولة النصرية ، السحر والشعر ، ريحانة الكتاب ، رقم الحلل في نظم الدول ، نفاضة الجراب ، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ، الكتيبة الكامنة في شعراء المائة الثامنة وغيرها من كتبه العديدة النفيسة .

فقد أسهم لسان الدين بتصنيفه هذه الكتب في اثراء المكتبة العربية اثراء ذا بال ، فهي متعددة الموضوعات ، متشعبة التخصصات ، جمعت بين فنون الأدب ، وأساليب الحكم، وفن التراجم ، وتقويم البلدان، وتسجيل التاريخ، وازجاء الأخبار ، وترويض الفكر والتنسيق بين علم التاريخ وفن الأدب .

هذا وقد خلف لسان الدين – فضلا عن الآثار التي ذكرنا – ديوان شعره النفيس ، وعددا من الرسائل التي ضمتها بعض كتبه وبخاصة تلك التي ضمها كتابه « كناسة الدكان بعد انتقال السكان » .

« ٢ »

ابن زيدون كاتبا :

فاذا ما انتقل الحديث الى نثر ابن زيدون وجدنا انفسنا أمام فنان أعد نفسه لامتلاك ناصية فن النثر اعدادها لامتلاك مجامع فن الشعر موهبة تمنى ، وملكة تهذب ، وأما النثر فانه مرتبة تقوم على الاكتساب ، ومنزلة تبنى على حسن الاعداد .

ومن هنا نستطيع أن نقرر في غير تردد أن ابن زيدون قد وهب ملكة الشعر كأسمى وأخصب ما تكون هذه الموهبة ،وأنه قد امتلك قدرة الكتابة النثرية امتلاكا بأن أعد نفسه لها كأفضل ما يكون الاعداد .

لقد تتلمذ أبو الوليد في مستهل حياته على أبيه وكان فقيها عالما فاضلا ، ثم توفر في فجر شبابه على الدراسة بحسن الاقبال وجودة التفرغ ومتابعة التحصيل فحفظ القرآن الكريم ، ودرس أسرار اللغة وتوفر على العلوم الدينية ، وقرأ أدب الأقدمين ، وثقف نفسه ثقافة عقلية فلسفية وهضم أخبار العرب وأيامهم وأمثالهم ، واستقرأ حياة الأعلام من أبناء أمته الأمر الذي جعل منه أديبا فذا ، وافر المعرفة ، غزير المحصول ، لطيف الأدب ، عذب الحديث ، جذاب الحوار ، ترفده ذخيرة من المعارف في كل موقف قيض له أن يقفه ، الأمر الذي هيأه لأن يكون شاعرا محلقا ، وكاتبا فذا ، وسفيرا بارعا ، ووزيرا محنكا ، بل ظل نجمه يسمو حتى صار يلقب بذي الوزارتين ، ذلك أن مؤهلات الوزارة والسفارة آنذاك كانت تعتمد أول ما تعتمد على الكفاءة العملية والمكانة العلمية والأدبية ، ان ابن زيدون يصور حصيلته الثقافية وذخيرته العلمية في هذا البيت النفيس من احدى قصائده :

ونجدتي علم توالت فنونه
كما يتوالى في النظام سخاب

هذا وان الأخبار حول بلاغة ابن زيدون – حديثا وانشاء – لتترى متواكبة متزاحمة عند كل الذين عنوا بمتابعة أخباره أو الترجمة لحياته ، وهي أخبار على جانب من الطرافة والاثارة ، منها ما قصه أحد وزراء بني عباد من أن أبا الوليد بن زيدون « كان قائما على جنازة بعض حرمه والناس يعزونه على اختلاف طبقاتهم ، فما سمع يجيب رجلا منهم بما أجاب به آخر » .

فاذا كان لنا أن نتصور الأعداد الكبيرة من الناس التي تتجمع في مناسبة عزاء متصلة الأسباب باحدى ذوي الرحم من أهل ابن زيدون ، وهي بداهة من مختلف الثقافات والاتجاهات والطبقات أمكننا أن نستنتج مدى المقدرة بل الموهبة التي امتلك ناصيتها أديبنا وهو يجيب كل قادم للعزاء اجابة لا تتكرر مع آخر ٠

لذلك فقد تألق نجم ابن زيدون في الكتابة تألقه في الشعر بحيث لم يفت مترجميه اضفاء تلك الصفة عليه مع مزيد من التمجيد وكثير من الاعجاب ، فهذا صاحب قلائد العقيان يضعه على رأس « الوزراء ذوي الغرر والكتاب ذوي البلاغة » وأما ابن بسام فيقول عنه انه « وسع البيان نظما ونثرا » ثم مضى قائلا : « الى أدب ليس للبحر تدفقه ولا للبدر تألقه ، وشعر ليس للسحر بيانه ولا للنجوم الزهر اقترانه ، وحظ من النثر غريب المباني ، شعري الالفاظ والمعاني » ٠

ويصف آخرون نثر ابن زيدون قائلين : « كانت الكتب تنفذ من انشاء أبي الوليد الى شرق الاندلس فيقال تأتي من اشبيلية كتب هي بالمنظوم أشبه منها بالمنثور » ٠

تلك بعض جوانب الخلفية التاريخية الثقافية لابن زيدون الناثر الكاتب ، فما هي اذن سمات فنه وملامح نثره ؟

« ٣ »

منهج المحافظة والتقليد :

ان ابن زيدون ذو ولاء لتراث بني قومه الوافد اليه من المشرق الاسلامي ، فقد أقبل عليه دراسة وحفظا وفهما ومن ثم تأثر به ، وحذا حذوه ، ورسم على نهجه ، ونسج على منواله ، ولعل أهم من تأثر بهم ابن زيدون من كتاب المشارقة ومفكريهم الجاحظ وبديع الزمان وأبي بكر الخوارزمي ، وان تأثره بهؤلاء يقع في نطاق الاسلوب والفكرة والصورة ، ولعل أصدق مثال لهذا النهج ما كتبه ابن زيدون لابن جهور من موضع اعتقاله وهو ما اصطلح على تسميته بالرسالة الجدية ، يقول أبو الوليد في بعض أجزاء هذه الرسالة :

« يا مولاي وسيدي الذي ودادي له ، واعتدادي به ، واعتمادي عليه ، أبقاك الله ماضي حد العزم ، وآرى زند الامل ، ثابت عهد النعمة ، ان سلبتني ـ أعزك الله ـ لباس انعامك ، وعطلتني من حلي ايناسك ، وغضضت عني طرف حمايتك ، بعد أن نظر الاعمى الى تأميلي لك ، وسمع الاصم ثنائي عليك ، وأحس الجماد باسنادي اليك ، فلا غرو فقد يغص الماء شاربه ، ويقتل الدواء المستشفي به ، ويوتى الحذر من مأمنه ، واني لاتجلد فأقول : هل أنا الا يد أدماها سوارها ، وجبين عضه اكليله ، ومشرفي ألصقه بالارض صاقله ، وسمهري عرضه على النار مثقفه؟ والعتب محمود عواقبه ، والنبوة غمرة ثم تنجلي ، والنكبة « سحابة صيف عن قريب تقشع » ٠ وسيدي ان أبطأ معذور ٠

وان يكن الفعل الذي ساء واحدا
فأفعاله اللائي سررن ألوف ـ

وليت شعري ما الذنب الذي أذنبت ولم يسعه العفو؟ ولا أخلو من أن أكون بريئا ، فأين العدل ؟ او مسيئا فأين الفضل ؟ وما أراني الا لو أمرت بالسجود لآدم فأبيت ، وعكفت على العجل، واعتديت في السبت وتعاطيت فعقرت، وشربت من النهر الذي ابتلي به جنود طالوت ، وقدت لابرهة الفيل ، وعاهدت قريشا على ما في الصحيفة ، وتأولت في بيعة العقبة ، ونفرت الى العير ببدر ، وانخذلت بثلث الناس يوم أحد ، وتخلفت عن صلاة العصر في بني قريظة ، وأنفت من امارة أسامة ، وزعمت أن خلافة الصديق فلتة ، ورويت رمحي من كتيبة خالد « وضحيت بالاشمط الذي عنوان السجود به ، لكان فيما جرى على ما يحتمل له أن يسمى نكالا ، ويدعى على المجاز عقابا ٠

وحسبك من حادث بامرىء
ترى حاسديه له راحمينا

فكيف ولا ذنب الا نميمة أهداها كاشح ، ونبأ جاء به فاسق ؟ والله ما غششتك بعد النصيحة ، ولا انحرفت عنك بعد الصاغية ، ولا نصبت لك بعد التشيع فيك ، ففيم عبث الجفاء بأذمتي ، وعاث في مودتي واني غلبني المغلب ، وفخر على الضعيف ، ولطمتني غير ذات سوار وما لك لا تمنع مني قبل أن أفترس ، وتدركني ولما أمزق، وقد زانني اسم خدمتك ، وأنلت الجميع من سماطك ، وقمت المقام المحمود على بساطك ؟

ألست الموالي فيك نظم قصائد

هي الانجم اقتادت مع الليل أنجما؟

وهل لبس الصباح الا بردا طرزته بمحامدك ، وتقلدت الجوزاء الا عقدا فصلته بمشاعرك ، وبث المسك الا حديثا أذعته بمفاخرك ، وما يوم حليمة بسر ، وحاش لله أن أعد من العاملة الناصبة ، وأكون كالذبالة المنصوبة تضيء للناس وهي تحترق » ٠

وفي فصل منها :

« ولعمري ماجهلت أن الرأي في أن أتحول اذا بلغتني الشمس ونبا بي المنزل ، واضرب عن المطامع التي تقطع أعناق الرجال ، ولا استوطىء العجز فيضرب بي المثل ، خامري أم عامر ، واني مع المعرفة بأن الجلاء سباء ، والنقلة مثلة ، لعارف أن الادب الوطن الذي لا يخشى فراقه ، والخليط الذي لا يتوقع زياله ، والنسب الذي لا يخفى ، أينما توجه ورد أعذب منهل ، وحط في جناب قبول ، وضوحك قبل انزال رحله ، واعطى حكم الصبي على أهله ،

وقيل له أهلا وسهلا ومرحبا

فهذا مبيت صالح وصديق

غير أن الوطن محبوب ، والمنشأ مألوف ، واللبيب يحن الى وطنه ، والكريم لا يجفو أرضا بها قوابله ، ولا ينسى بلدا فيه مراضعه ، قال الاول :

أحب بلاد الله ما بين منعج

الى وسلمى يصوب سحابها

بلاد بها عق الشباب تمائمي

وأول أرض مس جسدي ترابها

مع مغالاتي بعقد جوارك ، ومنافستي في الحظ من قربك ، واعتقادي أن الطمع في غير طبع ، والغنى من سواك عناء ، والبدل منك عوز ، والعوض لقاء ٠

واذا نظرت الى أميري زادني

ضنابه نظري الى الامراء

وكل الصيد في جوف الفرا ، وفي كل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار ، فما هذه البراءة ممن يتولاك ، والميل عمن يميل اليك ، وهلا كان هواك فيمن هواه فيك ، ورضاك لمن رضاه لك ٠

يا من يعز علينا أن نفارقكم

وجد اننا كل شيء بعدكم عدم »

ان هذه الرسالة على شهرتها واحتفاء الادباء بها ، وافراد صلاح الدين الصفدي مجلدا كاملا لشرحها أسماه « تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون » لا تزيد في نظرنا عن كونها امتدادا لمدرسة بديع الزمان الهمذاني من حيث السجع والجناس والتلاعب بالالفاظ وادارة فحاوي الجمل والاستشهاد بالشعر وتضمين الامثال ، غير أن ثمة فرقا واضحا بين الاسلوبين والشخصيتين ، فأسلوب ابن زويدن وان كان يجري في نفس المضمار الا انه أكثر اشباعا كما أن معانيه أكثر عمقا ، ولعل هاتين الظاهرتين تبين لنا الفرق بين شخصية بديع الزمان الاكثر ميلا الى الخفة وشخصية ابن زيدون الرزينة الحكيمة الآخذة من معين الثقافة بأكثر مما أخذ بديع الزمان الهمذاني متخفيا وراءها ، قابعا خلف ساحتها ، انه يقول في رسالة بعث بها الى المظفر سيف الدولة أبي بكر بن الافطس :

« وما زلت ــ أبقى الله الحاجب ــ أتلقى من مساعيه المشكورة ، ويقرع سمعي بمآثره المأثورة ، ما هو أندى من بلوغ الامل ، وأشهي من اختلاس القبل ، وأغض من جني الزهر ، وألطف من نسيم السحر حتى انقادت نفسي

في زمام التأميل المودة، ونازعت الى الاخذ بحظ من الاعتلاق والممازجة ، ونظرت الى ما دون ذلك من أسباب البعد المانعة ، وامتداد البلاد المعترضة ، فغضضت طرف الخيبة ، وطويت كشحا على اليأس من درك الامنية ، الى أن ندبني الادب أبو فلان الى مخاطبته ، وحرضني على مكاتبته ، ونبهني على مافي التثاقل عن مداخلته،من التضيع الصريح والتقصير البين الصحيح،اذ هي أسنىعلق غوليبه• وأنفس ذخر نوفس فيه،فطربت الى ذلك، كما طرب النشوان مالت به الخمر » ، واهتززت له « كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب » • ورأيت من شكر يد العلياء فيما حثني اليه ، وحضني عليه ، مما فيه حلية الفخر ، ومكرمة الدهر ، ان استفتح باب المكاتبة بالشفاعة ، وانهج طريق المخاطبة في العناية به ، بيننا بعد من ذمام الطلب ، وحرمة الود الادب ، ما استقصر نفسي معه أن يتقدم في خدمة رغبته قلمي ، قد تأخرت قدمي ، ويعد لاقتصار بغيته كتابي ، دون ان أزم اليه ركابي ، وهو فتى نام جده ، واستيقظ حده ، فتنكر الزمان له ، واعترت الايام به بين ذئاب سعاية عوت عليه ، وعقارب وشاية دبت اليه » •

لقد حذا ابن زيدون في رسالته هذه حذو بديع الزمان في احدى رسائله الى ابي بكر الخوارزمي حتى ليكاد يقع الحافر على الحافر في بعض فقرها على حد قول ابي الطيب المتنبي •

ولكن ليس من كبير بأس في ذلك ، فان التزام ابن زيدون سبيل سابقيه في بعض ما كتب لم يخرج عن كونه امتدادا لمدرستهم ، واحياء لنهجهم ، وولاء لتراثه وثقافته •

« ٤ »

منهج التحرر والابتداع :

على أن أبا الوليد بن زيدون لم يجعل من قلمه أسير نهج الاقدمين في كثير من الاحيان يخطط لرسالته ، بجمع عناصرها ، وينسق أفكارها ، وينفلت من أسار لسجع يتحرر منه الا ما جاء فيض الخاطر وعفو البديهة ، ولعل رسالته الى ابي عامر بن مسلمة في اشبيلية لكي يزكيه عند المعتضد ابن عباد ويقدمه اليه لمثال واضح على استقلال ابن زيدن في نهجه النثري ، وتفرده دون معاصريه بأسلوب ربما كان أقرب شيء الى اسلوبنا نحن أبناء القرن الرابع عشر الهجري ، فلنستمع اليه مخاطبا ابن مسلمة :

« يا سيدي ، وارفع عددي ، واول الذخائر في عددي ، وأخطر علق ملأت من اقتنائه يدي ، ومن ابقاء الله في عيشة باردة الظلال ، ونعمة سابغة الاذيال ، قد تقاصر الثناء عليك ، وتوالى الحديث الحسن عنك ، حتى حللت محل الامانة ، وكنت موضع تقليد الوطر ، واثبات الطوية ، والله يمتعك بما حازه لك من الخير ، ووفره عليك من طيب الذكر •

في علمك ــ اعزك الله ــ ما تقتضيه العطلة من اظلام الخاطر ، وصدا النفس ، ويجنيه طول المقام من أخلاق الديباجة ، وارخاص القدر ، وقد آن ان اجتني ثمرة من آداب أطلت الاعتناء بها ، واخلاق أدمت رياضة النفس عليها ، ولما مخضت الملوك ، وجدت عميدهم الذي انسى السالف قبله ، وتقدم الراهن معه ، واتعب الغابر بعده ، الحاجب فخر الدولة مولاي ، ومن أطال الله بقاءه ، وكبت اعداءه ، لما خصه الله به من سناء الهمم ، وسماحة افردته من النظراء ، وأعلته عن مراتب الاكفاء ، فرأيت قبل ان أحمل لغيره نعمة أو أوسم ممن سواه بصنيعة ، ان أعرض نفسي مملوكة عليه ، عرض من لا يؤهلها لاجازته الا بالاستجازة ، ولا يطمع لها في قبوله الا مع المسامحة ، فلو كنت الوليد بن عبيد براعة نظم ، وجعفر بن يحيى بلاغة نثر ، وابراهيم بن المهدي طيب مجالسة ، وامتاع مشاهدة، ثم حضرت مجلسه العالي ، لما كنت بسعة احاطته الا في جانب التقصير ، وتحت عهدة النقصان ، غير انه لم يعدم في نجابة غرس اليد ، واصابة طريق المصنع ، من ولاية اخلصها ، ونصيحة امحضها ، وشكر اجنيه الغض من زهراته ، وثناء اهدى اليه العطر من نفحاته ، ففوضت اليك هذه السفارة ، واعتمدتك بتكليف النيابة ، لوجوه :

منها حظوتك لديه ، ومكانتك منه ، سوغك الله الموهبة في ذلك ، وانهضك باعباء الشكر لها ، ومنها سرو مذهبك ، وكرم سجيتك ، وصحة مشاركتك ، لمن لم يستوجبها استيجابي ، ولا استدعاها بمثل أسبابي من تداني الجدار وتصافي السلف والانتماء الى اسرة الادب ، فان وافقت السانحة الارادة ، فحظ اقبل وعبد بلغ من قبول سيده ما أمل ، ولم أقل : « عمرك الله » كما قيل في النجمين بل قلت : « وقد يجمع الله الشتيتين » وان عاق حرمان عادته ان يعوق عن الظفر ، ويعترض دون الامل ، فاعلمه ـ ايده الله ـ انى في حالي العطلة مع غيره والتصرف ، ويومي الايطان والتطوف كالمهتدي بالنجم حين عدم ذكاء ، ومتيمم الصعيد اذا لم يجد الماء .

فان اغش قوما غيره أو ازرهم

فكالوحش يدنيه من الانس المحل

والله يتولاه بالفسحة في عمره ، والاعلاء لامره ، ويصرف الاقدار مع ايثاره ويصرف وجوه التوفيق الى اختياره .

ولك يا سيدي في انتدابك لما ندبتك له ما للساعي المنجح من الشكر ، وللمجتهد البالغ من العذر ، وملاك الامر تقديم المراجعة بالايجاب فأسكن اليها والجواب فاعتمد عليه ، وأهدي اليك ندى الغض الناضر من سلامي، والارج العاطر من تحيتي » .

انها ظاهرة تشد الانتباه وتلفت النظر تلك التي جعلت ابن زيدون ينفلت من عقال السجع اللهم الا في استهلاك كتابه ، ولعله عمد اليه في ذلك الاستهلاك لكن يثير اهتمام ابن مسلمة وينبه عاطره ، فقد ألف الناس آنذاك الا يقرأوا الا اسجاعا والا يسمعوا الا ايقاعا ، واذا ما ضربنا صفحا عن هذه الاسجاع القليلة كانت الرسالة واحدة من رسائل عصرنا من حيث تحرر الاسلوب وسوق الفكرة وتتابع الجمل ويسر التعبير .

« ٥ »

منهج الغنائية النثرية :

سلف القول في وصف نثر ابن زيدون انه « غريب المباني ، شعري الالفاظ والمعاني » وان كتبه التي كانت تأتي من اشبيلية « هي بالمنظوم أشبه منها بالمنثور » .

ان الذين ساقوا هذه الاقوال لم يطلقوا عبثا ، ولم يلقوا بها مجاملة لاديب الاندلس الكبير ، وانما هي احكام اصدروها بعد دراسة مستأنية وقراءة غير عجلة لآثار ابن زيدون النثرية .

كتب ابن زيدون بعد فراره من السجن في قرطبة الى احد اصدقاء ابيه ، من ذوي المكانة ، لعله ابو بكر بن مسلم ، رسالة فريدة صور فيها كل ما اعتلج في نفسه من آلام وقلق ، وما وقر في خاطره من خوف وحذر ، مضمنا أياها الوانا من العتاب الصادق المر ، مسجلا فيها مشاعره حيال وطن لا يستشعر فيه أسباب الامن من خلال معان ربما لم يسبقه اليها أديب من حيث يسر انسيابها الى الخاطر وسرعة اقتحامها منافذ القلوب ، مستعملا في ذلك جماع حصيلة حافظته من آي الكتاب العزيز ومختار شعر العرب وروائع أمثالهم ، والمرء اذا غنى أو بكى من خلال وسيلة غير الشعر ، ترك نفسه على سجيتها واطلق لقلمه العنان ، فلا سجعة تعوقه ، ولا صنعة تستهويه ، ومن هنا كانت غنائية ابن زيدون وسحرها وبراءتها قد تجسمت في هذا القول :

وانك لم يفخر عليك كفاخر

ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

فلم استطع صبرا وعلمت اني قد ابليت عذرا ، ولم يبق الا ان يعذرني لبيد وكاد ، ورأيت أن العاجز من لا يستبد ، فالمرء يعجز لا المحالة ولم استجز أن أكون ثالث الاذلين : العير والوتد . وذكرت ان الفرار من الظلم ، والهرب مما لا يطاق من سنن المرسلين ، قال الله عز وجل على لسان موسى عفليه السلام : « ففررت منكم لما خفتكم » وقال الشاعر :

لا عار لا عار في الفرار فقد

فر نبي الهدى الى الغـــار

ونظرت في مفارقة الوطن ، والبين عن الاحبة ، فتبين لي ان ايحاش نفسي ، بايناس أهلي ، وقطعها في صلة وطني غبن في الرأي وخور في العز ، ووجدت الحر ينام على الثكل ، ولا ينام على الذل ، وأذنت الى قولهم ليس بينك وبين البلاد نسب فخيرها ما حملك •

واذا نبـا بـك منزل فتحـول

وقال بعض المحدثين :

اری الناس احدوثة   فـكوني حديثا حسن
كـأن لم يزل ما أتى   وما قد قضى لم يكن
اذا وطـن رابني   فـكل مكان وطن

ولم استغرب أن اسام مثل هذا الخسف في مسقط رأسي ، ومعق تمائمي ، وأول أرض مس ترابها جلدي ، فقديما ضاع المرء الفاضل في وطنه ، وكسد العلق الغبيط في معدنه ، قال بعضهم :

اضيع في معشري وكـم بلد   يعد عود الكبـاء من حطبه

فاستخرت الله عز وجل ، واضح وجه العذر ، ثابت قدم الحجـة ، عند من غض عـين الهوى ، وخزن لسان التعسف والله يصيب غرض الصواب برأيي ويقرب غاية النجاح على سعيي ، حسبما في علمه اني مظلوم مبغى عليه ، منسوب ما لم آته الي ، فهو المؤمل بذلك والمرجو له » •

ويمضي ابن زيدون مفتت القلب مقروح الكبـد يسجل مشاعره حيال أرضه التي هجرها ، وداره التـي غادرها ، وامه التي غاب عنها وهـو وحيـدها ، ويصف تلهفه الى ما يدخل الامن الى نفسه ، ويبعث الاطمئنان الى فؤاده ، في عبارة أقرب الى الهديل ، واسلوب أعذب من الشعر وأصفى ، غير مهمل سوق الحكم والامثال التي تنثال عليه انثيالا في قوله :

« والذي أحبه منك ، واثق في المسارعة اليه بك مجاريا ذكرى ، مفاوضا في أمري ، معلما له بما لا يذهب عنه من أن الذي اخترت لنفسي غاية ما يسيء العروبة ، ويساء المولى عنه ، فالجلاء اخو القتل ، والغربة أحـد السبائين ، قال الله تعالى : « ولو انا كتبنا عليهم ان اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه الا قليل منهم » ، وقال الشاعر :

ومن يغترب عن داره لا يزل يرى

مصارع مظلوم مجرا ومسحبـا

وتدفن منه الصالحات وان يسيء

يكن ما اساء النار في رأس كبكبا

وقد هجرت الارض التي هي ظئري ، والدار التي كانت مهدي ، وغبت عن ام انا واحدها ، تمتد انفاسها شوقا الي وتغمض اجفانها حزنا علي والله يرى بكاءها ، ويسمع لي على من ظلمني نداءها ، فالاستجابة مضمونة للمخلص والمظلوم ، وقد حملت السمتـين ، واستوجبت الصفتين ولتكن بغيتك التي تدخرها عليها كلمة تأمين ، واشارة الى تأنيس وتسكين تراجعني بها فاظهر بحيث أنا آمنا ، والقـي العصا مطمئنا ، فان وجدت محز الشفرة فالغوان لا تعـلم الخمرة ، فان اشبهت الليلة البـارحة إعلمتني بذلك ، فطلبت الامن في مظانه ، وتقريت السلامة في مواطنها ، وصبرت حتى يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ، « كل يوم هو في شأن » ومع اليوم غد •

ولـكل حـال معقب ولربمـا   اجلى لك المكروه عما تحمد

ولك يا سيدي في انتدابك لما ندبتك اليه الفضل ، والايادي فروض ، والصنائع ودائع ، لا يذهب العرف بين الله والناس ، « والتحيـة الطيبة والسـلام المردد على سيدي » •

وتتألق غنائية ابن زيدون وتزداد صفـاء ، ويرق اسلوبه وتسـمو عبارته بحيث تضـاهي شعره براعـة ، وتساوق نظمه القاحين يروي قصته مع ولادة ، انها ـ أي قصته مع ولادة ـ محور حياته وفنه واحساسه وعيشـه

وفكره امساء واصباحا ، ومن هنا كانت روايته لها نثرا أرق من بعض أبياته فيها شعرا ، انه يريد أن يثبت في خواطر المتأدبين ان ابن زيدون ناثرا لا يقل عن ابن زيدون شاعرا ، ولك في ذلك الحق كله ، فلقد احتفل الناس بابن زيدون الشاعر ، ومن حقهم أن يفعلوا ، ولكنهم لم يهتموا بابن زيدون الناثر اهتمامهم به شاعرا وكان عليهم ان يفعلوا ، يقول ابن زيدون مسجلا جانبا من قصة حبه بقلمه :

« كنت في أيام الشباب ، وغمرة التصاب ، هائما بغادة تدعى ولادة ، فلما قدر اللقاء ، وساعد القضاء كتبت الي :

ترقب اذا جن الظلام زيارتي
فانـي رأيت الليـل أكـم للسر
وبي منك ما لو كان بالبدر مابدا
وبالليل ما ادجى وبالنجم لم يسر

فلما طوى النهار كافوره ، ونشر الليل عبيره، أقبلت بقد كالقضيب وردف كالكثيب ، وقـد اطبقت نرجس المقل على ورد الخجل ، فملنا الى روض مدبج ، وظل سجسج ، قد قامت رايات أشجاره ، وفاضت سلاسل أنهاره ودر الطل منثور ، وجيب الراح مزرور ، فلما شببنا نارها، وأدركت فينا ثارها ، باح كل منا بحبه ، وشكا ألم ما بقلبه، وبتنا بليلة نجني اقحوان الثغور ونقطف رمان الصدور ، فلما انفصلت عنها صباحا انشدتها ارتياحا :

ودع الصـبر محـب ودعـك
ذائـع من سـره ما استودعـك
يقرع السن علـى أن لـم يكن
زاد في تلك الخطـى اذ شيعك
يا أخـا البـدر سـناء وسـنا
حـفظ الله زمـانا أطلعـك
أن يطـل بعـدك ليلى فلكم
بت أشكو قصر الليـل معك

قال أبو الوليد : وكانت عتبة قد غنتنا :

احبتنـا انـي بلغت مؤملـي
وساعدني دهري وواصلني حبي
وجاء يهنيني البشـير بقربـه
فاعطيته نفسي وزدت له قلبي

فسألتها الاعادة ، بغير أمر ولادة ، فخبا منها برق التبسم ، وبدا عارض التهجم ، وعاتبت عتبة ، فقلت :

ومـا ضربت عتبي لذنب اتت به
ولكنمـا ولادة تشتهي ضربي
فقامت تجـر الذيل عـاثرة بـه
وتمسح طل الدمع بالعنم الرطب

فبتنا على العتاب ، في غير اصطحاب ، ودم المدام مسفوك ، ومأخذ اللهو متروك ، فلما قامت خطباء الاطيار، على منابر الاشجار ، وانفت من الاعتراف ، وباكرت الى الانصراف ، وشت بمسك الانفاس ، على كافور الاطراس:

لو كنت تنصف في الهوى ما بيننا
لم تهـو جـاريتي ولـم تتخـير
وتركـت غصنا مثمرا بجمـاله
وجنحت للغصن الذي لـم يثمر
ولقد علمت بأنني بـدر السما
لكن دهيت لشـقوتي بالمشتري

ليس من شك في ان هذا الضرب الثالث من ضروب فن القـول النثري عن ابن زيدون لما يدفـع بالدارس الحصيف الى اعطاء نثر اديب الاندلس الكبير مزيدا من العناية وقدرا أكبر من الدراسة ، والالتفات اليه التفاتة تماثل تلك التي يمنحها المتأدبون الى كتاب العربية الذين قامت شهرتهم علـى تعاطي فن النثر ، والتفرغ له ، والعكوف عليه ٠

ان ابن زيدون حال كونه يكتب هنا نثرا لا نخاله الا يدبج شعرا، فالفاظه جمعت بين النعومة وحسن الانتقاء، وامتلكت أسباب الرقة وبراعة الايقاع ، لقد الف بينهما في

عبارات عذبة متناغمة ، وجمل ندية متناسقة ، فيها حلاوة الشعر وهي نثر ، ولها ايقاع النظم وهي مرسلة •

« ٦ »

الفكاهة والسخرية أو الرسالة الهزلية :

النثر العربي مترع بالرسائل الفكاهية الساخرة البارعة، وان كثيرا من الادباء الكتاب قد عمدوا الى الكفاهة في كثير مما انشأوا ، ونحن نستطيع ان نعدد نفرا من هؤلاء من امثال ابي عثمان الجاحظ في رسالته التربيع والتدوير، وابن مناذر في وصف الدابة العجفاء ، وابي اسحاق الصابي في عهد التطفل وفي عزائه وأبي قريعة فيوفاة الثور الابيض وبديع الزمان في وصف البقرة وفي كثير من مقاماته ، وابي بكر الخوارزمي حين يعزي مسكويه في زواج أمه وابن شهيد في بعض المواقف في قصة التوابع والزوابع وغير ذلك مما لا نعني بحصره في هذا المقام ، وكلها رسائل اجتمعت لها اسباب النضج الغني في نطاق الفكاهة والسخرية •

غير ان أشهر رسالتين هزليتين فكاهيتين في النثر العربي على الاطلاق هما رسالة التربيع والتدوير للجاحظ والرسالة الهزلية لابي الوليد بن زيدون •

على ان الرسالة الثانية قد نالت من عناية الدارسين قدرا يزيد عن ذلك الذي نالته رسالة الجاحظ ، ويكفي في ذلك المقام ان الشيخ جمال الدين بن نباتة المصري قد ألف سفرا جليلا في شرح الرسالة الهزلية والتعليق عليها والتعريف بالاعلام الذين احتوتهم صفحاتها أطلق عليه عنوان « سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون » وهو من الكتب الممتعة النفيسة التي لا ينبغي ان تخلو مكتبة دارس الادب من نسخة منه •

وليس من شك في ان هناك نسبا فنيا بين رسالة التربيع والتدوير للجاحظ والرسالة الهزلية لابن زيدون ، فكل من الرسالتين قد انشئت للنيل من انسان بعينه والتشهير به والسخرية منه ، فرسالة الجاحظ انشئت لتهزأ من شخصية خصمه أحمد بن عبد الوهاب ، ورسالة ابن زيدون انشئت لتنال من مروءة غريمه في حب ولادة الوزير ابن عبدوس والتعريض به والسخرية منه •

غير ان رسالة الجاحظ قد أخذت طريقها الى أحمد بن عبد الوهاب بشكل مباشر ، اما رسالة ابن زيدون فقد أنشأها على لسان محبوبته ولادة وأرادها ان تبعث بها الى غريمه ، وهو تكليف لم يخل من تعسف ولم يسلم من اسراف ولم يخلص من تحيف ولم ينجح من شطط •

وعلى الرغم من نفاسة أكثر المحتوى في الرسالة الهزلية فاننا لا نستطيع ان نخفي تأثر كاتبها بالاطار العام لرسالة الجاحظ ، غير ان استهلاك ابن زيدون في رسالة أقسى من استهلاك الجاحظ وأشد نكالا ، حتى لنكاد نصنف هذا القدر منها تحت باب الهجاء أكثر مما نصنفه تحت باب السخرية والاستهزاء ، وهو الامر الذي تجنبه الجاحظ بحيث حرص من خلال خفة روحه وهدوء مشاعره على ان يصيب مقاتل أحمد بن عبد الوهاب دون ان يسيل دما •

غير انه انصافا للحق ولابن زيدون ينبغي ان نتمثل الظروف التي قيلت فيها كل من الرسالتين ، فأحمد بن عبد الوهاب الذي انشأ الجاحظ فيه رسالة التربيع والتدوير لم يكن سوى شخص مدع للعلم في ندوة الوزير محمد بن عبد الملك الزيات ، وهي الندوة التي كان الجاحظ يتردد عليها ولما لم يحتمل الجاحظ ادعاءات ابن عبد الوهاب وحواره السخيف وعجبه الزائف كتب فيه رسالته الآنفة الذكر •

وأما ابن عبدوس فأمره مع ابن زيدون مختلف كل الاختلاف ، لقد كان ابن عبدوس منافسا لابن زيدون في حب ولادة ، وولادة كانت بالنسبة الى ابن زيدون نور الدنيا وسعادة الدهر وأمل الحياة وبهجة الزمن وفرحة الايام ، ومن ثم فان سلطان الغيرة كان يكمن في خاطر ابن زيدون كمون الحسام المتحفز للانطلاق من غمده لكي يبعثر رشاش الدماء من خلف ومن قدام ، فبينما يبدأ الجاحظ رسالته في هذه البداية الناعمة الساخرة الضاحكة قائلا :

« كان أحمد بن عبد الوهاب ، مفرط الطول ويدعى انه مفرط القصر ، وكان مربعا وتحسبه لسعة جفرته واستفاضة خاصرته مدورا ، وكان جعد الاطراف قصير الاصابع وهو يدعي البساطة والرشاقة ، وانه عتيق الوجه اخمص البطن ،معتدل القامة ، تام العظم ، وكان طويل الظهر قصير عظم الفخذ ، وهو مع قصر عظم ساقه يدعي انه طويل الباد ، رفيع العماد ، عادي القامة ، عظيم الهامة الخ ... » نجد ان ابن زيدون من منطلق غيرته يبدأ صابا جام غضبه ولا نقول سخريته على هذا النحو : « أما بعد ، أيها المصاب بعقله المورط بجهله ، البين سقطه ، الفاحش غلطه ، العاثر في ذيل اغتراره ، الاعمى عن شمس نهاره ، الساقط سقوط الذباب على الشراب ، المتهافت تهافت الفراش في الشهاب فان العجب أكذب ، ومعرفة المرء نفسه أصوب » .

ويمضي ابن زيدون مسترسلا في رسالته على لسان ولادة الى ابن عبدوس قائلا : « وانك راسلتني مستهديا من صلتي ما صفرت منه أيدي امثالك متصديا من خلتي لما قرعت دونه صنوف اشكالك ، مرسلا خليلتك مرتادة ، مستعملا عشيقتك قوادة ، كاذبا نفسك انك ستنزل عنها الي ، وتخلف بعدها علي :

ولست بأول ذي همة دعته لما ليس بالنائل

لا شك انها قلتك اذ لم تضن بك ، وملتك اذ لم تغر عليك فانها اعذرت في السفارة لك ، وما قصرت في النيابة عنك ، زاعمة ان المروءة لفظ انت معناه ، والانسانية اسم انت جسمه وهيولاه ، قاطعة انك انفردت بالجمال واستأثرت بالكمال ، واستعليت في مراتب الجلال ، واستوليت على محاسن الخلال » .

ان ابن زيدون في هذا القدر من رسالته يجري في حلبة الجاحظ ولكنه — للاسف — نال من ولادة وابن عبدوس معا ، من حيث اراد ان ينال من ابن عبدوس وحده، وهو نيل يدخل في باب الهجاء العنيف ، واسلوب السخرية فيه أدنى من أسلوب الجاحظ .

على ان ابن زيدون لا يلبث ان يلتقط انفاسه ويقاوم مشاعر حفيظته حين يمضي قدما من السخرية ، بغريمه من منطلق الربط بينه وبين أبطال التاريخ واعلامه سلبيا وايهامه انه يفضلهم ، وانهم يستمدون امجادهم الحربية والسياسية والادبية والحكمية والعلمية والجمالية والبيانية والانسانية والفلسفية من شمائله ومواهبه .

ان ابن زيدون وقد دلف الى صميم السخرية بغريمه يستأنف كلامه ذلك الذي انهينا طرفه قبل قليل قائلا :

« حتى خيلت ان يوسف عليه السلام حاسنك فغضضت منه ، وان امرأة العزيز رأتك فسلت عنه ، وان قارون أصاب بعض ما كنزت ، والنطف عثر على فضل ما ركزت، وكسرى حمل غاشيتك ، وقيصر رعى ماشيتك ، والاسكندر قتل دارا في طاعتك ، وارد شير جاهد ملوك الطوائف بخروجهم من جماعتك ، والضحاك استدعى مسالمتك ، وجذيمة الابرش تمنى منادمتك ، وشيرين قد نافست بوران فيك وبلقيس غايرت الزباء عليك ، وان مالك بن نويرة أردف لك ، وعروة ابن جعفر انما رحل اليك ، وكليب انما حمى المرعى بعزتك ، وجساسا انما قتله بانفتك ، ومهلهلا انما طلب ثاره بهمتك ، والسموءل انما وفى بعهدك ، والاحنف انما احتبى في بردتك ، وحاتما انما جاء بوفرك ، ولقى الاضياف ببشرك » .

ويمضي ابن زيدون بلسان ولادة في ضرب الامثلة وخلع صفات المجد التي عرف بها ابطال التاريخ على ابن عبدوس الى ان يقول :

« وانك نهجت لابي معشر طريق القضاء واظهرت جابر بن حيان على سر الكيمياء ، وأعطيت النظام أصلا ادرك به الحقائق ، وجعلت للكندي رسما استخرج به الدقائق ، وان صناعة الالحان اختراعك ، وتأليف الاوتار والانفار توليدك وابتداعك ، وان عبد الحميد بن يحيى بارى اقلامك ، وسهل بن هارون مدون كلامك ، وعمرو بن بحر مستمليك ، ومالك بن أنس مستفتيك ، وانك الذي

أقام البراهين ووضع القوانين ، وحد الماهية وبين الكيفية والكمية ، وناظـر في الجوهر والعرض ، وميز الصحـة والمرض » •

انها حصيلة زاخرة وافرة من صفات النبوغ التي لا يتوفر بعضها ـ فضلا عن جميعها ـ في انسان ، يخلعها ابن زيدون من منطلق التحقير والسخرية على غريمه ـ يمكن الرجوع اليها في النص الاصلي للرسالة الهزلية ـ ولكنه لا يفعل ذلك الا لكي يضرب ابن عبدوس ضربة قاتلة على حين لا يلبث ان يعريه من كل تلك المحامد الخيالية التي الصقها به ، ويصب عليه ألوانا من النقم في قسـوة المغيظ واندفاع الغيور وحدة المتحامل ومرارة الهاجي ، ومن ثم يقلب الآية ـ كما يقولون ـ ويوجه بقية الرسالة الى خصمه على هذا النحو •

« وهبها لم تلاحظك بعين كليلة ، عن عيوبك •••• ولم تكن كاذبة فيما أثنت به عليك ، فالمعيدي تسمع به خير من ان تراه هجين القذال ، ارعن السبال ، طويل العنق والعلاوة ، مفرط الحمق والغباوة سيء الجابة والسمع ، بغيض الهيبة ، سخيف الذهاب والجيئة ، ظاهر الوسواس منتن الانفاس ، كثير المعايب ، مشهور المثالب ، كلامك تمتمة ، وحديثك غمغمة، وبيانك فهفهة ، وضحكك قهقهة، ومشيتك هرولة ، وغناك مسألة ، ودينك زندقة ، وعلمك مخرقة •

مساو لو قسمن على الغواني لمـــا امهرن الا بالطـــلاق

حتى أن باقلا موصوف بالبلاغة اذا قـــرن بـــك ، وهبنقة مستوجب لاسم العقل اذا اضيف اليك ، وطويسا مأثور عنه يمن الطائر اذا قيس عليك ، فوجودك عدم ، والاغتباط بك ندم ، والخيبة منك ظفر ، والجنة معك سقر ، كيف رأيت لؤمك لكرمي كفاء ، وضعتك لشرفي وفاء ؟ وأني جهلت أن الاشياء انما تنجذب الى اشكالها ، والطير انما تقع على الافها ، وهـــلا علمت ان الشرق والغرب لا يجتمعان وشعرت أن المؤمن والكافر لا يتقاربان، وقلت الخبيث والطيب لا يستويان وتمثلت :

ايها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله كيف يلتقيان

وذكرت اني علق لا يباع ممن زاد ، وطائر لا يصيده الا من أراد ، وغرض لا يصيبه الا من اجاد ، ما احسبك الا قد تهيأت للتهنئة ، وترشحت للترفية ، لولا ان جرح العجماء جبار ، للقيت من الكواعب ما لاقى يسار ، فما هم الا ببعض مـــابه هممت ، ولا تعرض الا الايسر ما لـــه تعرضت ، اين ادعاؤك رواية الاشعار وتعاطيك حفظ السير والاخبار ؟ أما ناب اليك قول الشاعر :

بنو دارم أكفاؤهم آل مسمع

وتنكـح في أكفائها الحبطات

وهلا عشيت ولم تغتر ، وما اشك انك تكون وافد البراجم ، أو ترجع بصحيفة المتلمس ، وهل عضلني همام بن مرة فاقول : زوج من عود خير من قعود •

ولعمري لو بلغت هذا المبلغ لارتفعت عن هذه الحطة، ولا رضيت بهذه الخطة ، فالنار ولا العار ، والمنية ولا الدنية ، والحرة تجوع ولا تأكل بثديها وما كنت لاتخطى المسك الى الرماد ، ولا امتطى الثور بعد الجواد ، فانما يتيمم من لم يجد ماء ، ويرعى الهشيم من عدم الجميم ، ويركب الصعب من لا ذلول له » •

ويظل ابن زيدون عازفا على نفس القيثارة مرسلا انغامه المريرة ومعانيه الموجعة يسوقها على لسان ولادة موجها اياها الى ابن عبدوس خالعا عليها مشاعر الصبابة تجاهه قائلا :

« ولعلك انما غرك من علمت صبوتي اليه ، وشهدت مساعفتي له ، من أقمار العصر ، وريحان المصر ، الذين هم الكواكب علو همة ، والرياض طيب شيم :

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم

مثل النجوم التي يسري بها الساري

تحن قدح ليس منها ، ما أنت وهم ؟ وانى تقـع منهم ؟ وهل أنت الا واو عمرو فيهم ؟ وكالوشيظة في العظم بينهم ؟

وان كنت انما بلغت قعر تابوتك ، وتجافيت عن بعض قوتك ، وعطرت اردانك وجررت هميانك ، واختلت في مشيتك ، وحذفت فضول لحيتك ، واصلحت شاربك ومططت حاجبك ، ورققت خط عذارك ، واستأنفت عقد أزرارك ، رجاء الاكتنان فيهم ، وطمعا في الاعتداد منهم ، فظننت عجزا ، واخطأت استك الحفرة ، والله لو كساك محرق البردين ، وحلتك مارية بالقرطين ، وقلدك عمرو الصمصامة ، وحملك الحارث على النعامة ، ما شككت فيك ، ولا سترت اباك ، ولا كنت الا ذاك وهبك ساميتهم في ذروة المجد والحسب ، وجاريتهم في غاية الظرف والادب ألست تأوى الى بيت قعيدته لكاع ، اذ كلهم عزب خالي الذراع ، واين من انفرد به ممن لا غلب الا على الاقل الاخس منه ، وهل يجتمع فيك الا الحشف وسوء الكيلة ، ويقترن علي بك الا الغدة ، والموت في بيت سلولية •

تعالى الله يا سلم بن عمرو أذل الحرص أعناق الرجال

الذي لا شك فيه ان ذكر البعض لايغني عن استعراض الكل ، ولكن هذا القدر الذي أوردناه من الرسالة الهزلية يمكن ان يساعد القارىء بقدر كاف على ان يلقى اضواء كاشفة على جوانبها المختلفة •

واذا كانت هذه التحفة الادبية النفيسة لم تحقق الغرض الذي بسببه أنشئت ــ وهو النيل من ابن عبدوس وابعاده عن ولادة حتى يصفو الجو لابن زيدون ــ فالامر الذي لا شك فيه انها أثرت فن النثر العربي وبخاصة الجانب الفكاهي منه ، ذلك الجانب الذي لم يصب جانب التوفيق فيه الا قلة من أدباء العربية •

وقبل أن نسجل انطباعنا عن هذه الرسالة ينبغي أن نشير الى عامل رئيسي حال بينها وبين أن تؤدي الغرض الذي استهدفه كاتبها ، ان هذا العامل يتمثل في موقفين تورط فيهما ابن زيدون فجانب من خلالها حدود اللياقة وأساء الى ولادة اساءة بالغة ، فأما الموقف الاول فيقع في مستهل هذه الرسالة حين زعم ابن زيدون أن ابن عبدوس يستعمل عشيقته قوادة ، وهو أمر ينزل ولادة منزلة من حضيض المهانة ، ولم يقف الامر عند ذلك بل جعله ينزل عن هذه العشيقة الى ولادة ويخلفها عليها ، ان العبارة التي استعملها ابن زيدون على ما فيها من تأنق وايقاع تخدش حياء أية امرأة من عرض الطريق ، فضلا عن أميرة في مكانة ولادة ، لقد خانت ابن زيدون لباقته وتخلت عنه حصافته حين أرسل هذا القول في مستهل رسالته «وانك راسلتني مستهديا من صلتي ما صفرت منه أيدي أمثالك ، متصديا من خلتي لما قرعت دونه أنوف أشكالك **مرسلا خليلتك مرتادة مستعملا عشيقتك قوادة ، كاذبا نفسك انك ستنزل عنها الي وتخلف بعدها علي** » •

وأما الموقف الثاني فهو سقطة أخرى سقطها ابن زيدون في حق ولادة في مجال مبارزته الكلامية مع ابن عبدوس ، لقد دفعت الغيرة الشديدة به الى أن يعير غريمه بأنه ــ أي ابن زيدون ــ أول من جنى طيب الثمر وترك له فضل الطعام وكانت السقطة هذه المرة شعرا لا نثرا ، وذلك في قصيدته التي يقول فيها :

ونبئتها بعدي استحمدت بسير اليك لمعني غمض
أبا عامر عثرة فاستقل لتبرم من ودها ما انتقض
ولا تعتصم ضلة بالحجاج وسلم قرب احتجاج دحض
وحسبي ان أطبت الجني لأفنانه وأبحت النفض

ان الهدف من الرسالة الهزلية ــ والامر كذلك ــ مقضى عليه بالاخفاق ، ولكن يبقى بعد ذلك ما هو أنفس من ذلك ، انه الاثراء الفني لتراث الكتابة العربية ممثلا في الجهد الذي بذله أديب الاندلس الكبير في هذا العمل الادبي المرموق •

واذا كان الخير ينبثق أحيانا من الشر ، فان هذه الظاهرة النادرة الوقوع ان صدقت على شيء فانما تصدق

على هذه الرسالة ، ذلك أن الغـيرة خلة ذميمة وظاهرة شريرة ، ومع ذلك فقد أثمرت هذه الخلة الذميمة هـذا العمل الادبي الفريد الذي نستمتع بقراءته ودراسته ٠

هـذا وان الرسالة الهزلية من حيث الاطـار ربما كانت امتدادا طبيعيا لنهج من الكتابة قديم بدأه الجاحظ برسالته الامر الذي ألمحنا اليه قبل صفحات قليلة ٠

أما فيما عدا ذلك فان الرسالة منفردة بنمطهـا الاسلوبي المتميز من خلال ظاهرة النثر الفني ، ذلك ان ابن زيدون شاعر حتى وهو يكتب ، ومن هنا كانت ألفاظه مختارة ، وكلماته ذات ايقـاع ، وعباراته ذات اشراق ، وفقراته تقتنص المعاني اقتناصا ، وتلفها لفا ، وتصل الى المرمى في انسيابة بارعة ورشاقة محببة ٠

ان صنوفا من الثقافة والمعرفة والافكار والتحصيل واللماحية والشاعرية تطرز الرسالة الهزلية من أولها الى آخرها ، ومن ثم فاننا نستطيع أن نسجل في غير غلو أن رسالة ابن زيدون هذه ليست الا جماع معرفة جمة ، وثمار ثقافة واسعة ، وحصيلة ذاكرة مترعة ، ونتاج فكر عميق، كتبت بقلم شاعـر ، وأسلوب كـاتب ، واحساس عاشق ولماحية أديب ، ونزوة غيور ٠

ولقد لعبت الغـيرة دورا صاخبا في مبنى الرسالة ومحورها ،لقد كانت الدافع الجارف وراء الهجاء الموجع ، ثم السخرية القاتلة مع ما صاحب ذلك من تحقير لشأن ابن عبدوس ، ثم تجهيل له ، وتحليل لصفاته وهيئته وحركاته وسكناته وحديثه وكلامه وبيانه وضحكه وعبوسه وغنائه وعلمه ودينه ان كان ابن زيدون قد أبقى له علم أو دين ، لقد فعل ابن زيدون بابن عبدوس ما لم يسبق أن فعله وزير أديب بوزير أديب ، ربما كانت السيوف والرماح احدى اللغات التي استعملت في مناسبات الخلاف بـين الوزراء ، أما ابن زيدون فقد كان يكسو غريمه ثم لايلبث أن يعريه ، ويرفعه ثم يهبط به ، ويطويه ثم ما يلبث أن ينشره ، فعل ذلك في دورات وكأنما هو مع غريمه في حلبة مصارعة ، يتلذذ باطالة دورة المبارزة زيادة في التنكيل به والنيل منه ٠

هذا ولا ينبغي للدارس أن يغفل عن الثروة الثقافية والادبية التي ضمتهـا دفتا الرسالة من أخبـار الاعلام الاقدمين ، وجمهرة أمثال العرب ، وطائفة الحكم النفسية، ومختارات الاشعار التي انتقيت بمهارة ووضعت في مكانها بحذق ، بحيث أدت كل حكمـة دورها ، واحتـل كل بيت مكانه ، ونفذ كل مثل مهمته ٠

لقد تنبـه الشيخ جمـال الدين بن نباته الى قيمة الرسالة وما احتوت عليه من أعلام ونفائس فأفرد لشرحها كتـابا نفيسا أسمـاه « سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون » وهو كتاب لا يستغني عن اقتنائه والاطلاع عليه كل دارس جاد أو أديب يبغى استكمال ثقافته ٠

على أنه لا ينبغي لنا أن نغض الطرف عن عبارة أحد حساد ابن زيدون حين قال : « لو رددنا ما اقتبسه ابن زيدون الى أصوله لم يبق شيء » ٠ وجوابنا على ذلك هل في استطاعة أديب آخر أن يقتبس ما قد اقتبس ابن زيدون، ان من الظلم لابن زيدون أن يطلق عـلى جـهده عبارة اقتباس ، ذلك لان الامر ليس اقتباسا ، وانما هو تحصيل علم ، واقتناء ثقافة ، واقتناص معرفة ، احتواها جميعا عقل فطن ، وفكر لماح ، ونفسية أديب ، وشفافية شاعر ٠

« ٧ »

السيرة الذاتية والتاريخية :

قليلون أولئك الادباء الـذين يستطيع الدارس أن يستخلص سيرتهم الذاتية وصورة حياتهم من آثارهم جلية القسمات واضحة المعالم ٠ ومن حسن الطالع أن ابن زيدون يعتبر واحدا من أولئك القليلين الذين يمكن الوقوف على الاحـداث الكبرى في حياتهـم من واقـع أدبهم شعرا كان أو نثرا ٠

ولما كان المقام مقام العناية بنثر ابن زيدون فاننا نحاول أن نسجل جانبا من المواقف الكبرى في حياته من

واقع نثره ، تلك المواقف التي كان لها أثر في تحويله من بيئة الى أخرى سواء أكان هذا التحول في نطاق الانتقال من مدينة الى مدينة أو من ولاء ملك الى طاعة ملك آخر ·

ان محنة ابن زيدون مع أبي الحزم بن جهور معروفة ، انتهت به الى السجن بعد محاكمة صورية خضعت للاهواء ، ولم تلتزم فيها سبل العدالة ، واعتمدت على شهادة الزور من شهود بعضهم لا وزن له ولا قيمة ، وحيل فيها بين أديبنا الكبير وبين أن يدفع التهمة عن نفسه ، ولقد وجدت هذه المحنة الكبرى سبيلها لان يسجل أديبنا أحداثها ومراحلها بقلمه البليغ الصارم وأسلوبه البارع ، انه يحكي قصة محاكمته وسجنه على نحو يمثل جانبا من سيرته الذاتية من خلال رسالة طويلة بعث بها الى صديقه أبي بكر بن مسلم قال في بعض فقراتها :

« في علمك أني سجنت مغالبة بالهوى ، وهو أخو العمى ، وقد نهى الله تعالى عن اتباعه ، وذكر أنه مضل عن سبيله اذ يقول : « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » ، وقال الشاعر :

اذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى
الى بعض ما فيه عليك مقال

دون أن تدرك بعض الحاجة به ، أو استثبات تؤمن مواقعة الزلل معه ، بل :

« أوردها سعد وسعد مشتمل
ما هكذا تورد يا سعد الابل »

وشهد ابن العطار العشار العاري عن الثقة والامانة ، البعيد من الرعية والصيانة ، الناشر لاذنيه طمعا ، الآكل بيده جشعا ، فكان القول ما قالت حذام ، ولم يقتصر على أن الحق بالشهود وهو واو عمرو فيهم ، ونون الجمع المضاف معهم ، دون أن يلحق بخزيمة ذي الشهادتين ، وينوب منفردا عن اثنين :

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد
فكلهم أفتى بالاعذار الي ، فيما شهد به من ذلك علي ، ثم سجني ان لم آت بمدفع ، أو اصدع من الحجة بمقنع ، فاحتاط واجتهد ، وتحرى واقتصد ، وصالحني من هذه الفتيا على النصف بتأخير الاعذار ، وتقديم السجن ، والصلح جائز بين المسلمين ، ثم أظهرت اليه عقدا كان المتوفي — قدس الله روحه ونور ضريحه — قد أشهد فيه أن لا مال له ، وان جميع ما تحيط به الدار التي توفي بعيد هذا الاشهاد فيها انما هو للغانية التي في عصمته حاشا دقائق بينها ، ومحقرات عينيها ، ومعلوم ان من أشهد بهذا على نفسه ، وتقيد الى مثله من لفظه ، فمحال أن يخلف عهدا ، أو يهلك عن وصية وسألته الشورى فيما أثبته من هذا العقد ، فلم يجبني الى ذلك ولو لم تكن الشورى من أدب الله اذ يقول : « وشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل على الله » ، لوجب أن يعلم أنها لقاح العقل ، ورائد الصواب ، وان للتشاور احدى الحسنيين : صوابا يفوز بمحمدته ، أو خطأ يشارك في مذمته ، قال الشاعر :

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة
فان الخوافي عدة للقوادم »

ان ابن زيدون لا يتخلى عن ملكة السخرية هنا أيضا ، ان سخريته بالشاهد لمن أطرف ما يمكن تصويره في مثل هذا المقام ·

وتنتهي مهزلة المحاكمة ، ويحكم على الاديب الكبير بالسجن ، فيصفها للتاريخ ولنا ، ويقصها وقد امتلأ برداه ألما ، وتمزق جانباه غيظا فيقول ، وقد أوردها صاحب الذخيرة بروايتين نختار احداهما :

« وكنت أول حبسي قد وضعت من السجن في موضع جرت العادة بوضع مستوري الناس وذوي الهيئات منهم فيه ، وفي الشر خيار ، وبعضه أهون من بعض ، فمنيت من مطالبة بعض من يأتمر الناظرون في السجن له ، ويسمعون منه ، بما اقتضى نقلي الى حيث الجناة المفسدون ، واللصوص المقيدون ، وشكوت ذلك الى الحاكم الحابس لي في اليوم الذي مضى ذكره بمشهد من تقدم وصفه ،

فانتفى من الرضى به ، واظهر الامتعاض منه ، وتقدم الى الموكل بالسجن في اختيار مجلس اباين فيه من لا تليق بي ملابسته ، وانتبذ عن من لاترضى لي مجالسته ثم لم ألبث ان أحضره مجلس نظره ، وأمر بتأديبه على أمثاله في ما أمره به ، وانتهائه الى ما حد له ، واستأنف العهد في التضييق علي ، ومنع من اعتاد صلتي من الوصول الي، فأصعدت الى غرفة في السجن أقنعني بها مع خساستها ، وأسلاني عن المصيبة بالكون فيها على مضاضتها ، انفرادي من لفيف الاخلاط ، ومن ضمه السجن من السفلة والسقاط فحين استوائي اليها عهد بحطي البهم وخلطي بهم ، ووضعي بينهم ، فنقلت في نفسي ثلاث نقل على أقبح النصب وأسوأ الرتب ، ودخل الي في هذا الحال من أبلغني عن ابن أخي الحكم رسالة جامعة من السب الفاحش لفنون مشتملة من الوعيد المرهب على ضروب » في اعتقادنا أن علماء الاجتماع ودارسي علم الجريمة وتاريخ السجون يستطيعون أن يفيدوا من هذه الرسالة فائدة جليلة ، وفي استطاعة علماء النفس أن يحللوا نفسية أديب حبس ظلما وسجن بدافع من الاهواء الطائشة ، ان أديبنا الكبير وقد هاله أمر نفسه وسوء حاله لم يكتف بفقرات نثرية يسجل فيها محنته ، ولكنه رأى أن الشعر هنا ضرورة مكملة للنثر ، فختم قصته بقصيدة تحكي أعماق مشاعره وأصداء آلامه وكوامن أوجاعه ولواعج لوعته ، وهو في كل من النثر والشعر يلتزم فنية الشكل والاطار وأناقة التعبير والاحتواء .

وفي مرحلة أخرى من مراحل كتابة ابن زيدون يوثق لنا تحويلا هاما من تحولات حياته ، وهو اتجاهه من قرطبة وتركه اياها ، العزم على التوجه الى اشبيلية حيث ملك بني عباد وحيث السحر والشعر ، والملك والسلطان .

ان أبا الوليد ابن زيدون يكتب أول الامر الى أبي عامر بن مسلمة ، ثم يثني بالكتابة الى المعتضد نفسه يبدي الامل في المثول بين يديه ، والانتظام في حضرته ، والانخراط في خدمته ، انها مرحلة الانتقال من قرطبة مسقط رأسه ومرتع صباه ومرباه ، ومغنى لعبه وصبابته الى اشبيلية حيث عاش واستقر فترة من الزمان طويلة غير قريرة – فقد كان هواه دائما في قرطبة – وان كان قد عاش في اشبيلية بين السفارة والوزراء ، يقول ابن زيدون في رسالته الى المعتضد :

« أطال الله بقاء الحاجب فخر الدولة مولاي وسيدي، ومولى المناقب الجليلة والضرائب النفيسة ، في أكمل ما تكفل له به من علو القدر ونفاذ الامر وخصة من النعم باسبغها سربالا ، وأبردها ظلالا ، وأحمدها مآلا .

كنت – أعز الله الحاجب مولاي – قد كتبت الى الوزير أبي عامر عبده بما أيقنت انه انتهى اليه ، واشتمل عليه ، فكتب الوزير الى بعض أسبابه بما يقوم مقام المراجعة لي بما يرتفع عن قدري ، ولا تتسع له ساحة شكري ، لعلمي أنه عن الحاجب – أيده الله – صدر ، وباذنه نفذ ، والذي عداني عن أن يكون الكتاب في ذلك الى الحاجب – أبقاه الله – التأدب بآداب حصفاء العبيد في الاجلال والاعظام ، وترك التبسيط والاقدام ، وقلما استغنت أوائل مطالب الاتباع لحضرة الملوم عن وسائط تمهد لها ، وتعتمد أوقات الامكان بها ، لا اني اتخذت الى الحاجب – أدام الله علوه – غير سيادته ذريعة ، أو التمست اليه الا من نفاسة نفسه شفاعة ، واني معدل لمثلي عن تفيؤ ظلاله ، والاعتماد بحبله ، وصناعة الادب كاسدة الا عليه ، وطريق الامل موحشة الا اليه ! ولم يدعني الى استطلاع ما قبله شك في كرمه ، ولا سوء ظن بسماحة شيمه ، بل لزوم الطريقة في التوطئة للمطلب ، والتدرج الى احراز الارب ، وحسبي أن أملي قد ارتاد الجناب الرحب ، والمشرب العذب ، ولعل الخطوط ستكشف ، والنوائب ستصرف ، الى أن أبلغ الى أبعد غايات الامل من مشاهدة حضرته العلياء ، والنظر الى غرته الزهراء ، فوالله ما ينصرف فكري ، ولا ينصرم حين من عمري الا في الذكر له ، والشوق اليه ، وتصور المثول بين يديه ، وأنا أقدم الاعتذار من مهابة تستملك جناني ، وحصر يكاد يقطع في أول المشافهة لساني ، فان حدث ذلك فعذري عذر الفضل بن سهل وقد انقطع بين يدي الرشيد فقال : يا أمير المؤمنين ، من فراهة العبد أن تملك قلبه مهابة سيده » .

لعلنا نلاحظ أن هذه الرسالة تحوي أسلوبا متميزا

من القول ، ذلك أن أديبنا يكتب الى ملك أديب فارس شاعر لم تتوطد بعد بينهما أسباب المودة ، ولذلك فانه عمد الى التحسب في خطابه حيث قال لمخاطبة الملوك نمط من القول ومنهج من الاسلوب متميزان عما يخاطب بهما سواد الناس ، الامر الذي يقتضي اختيار الالفاظ وانتقاء المعاني التي تناسب المقام ، ومن الطريف أن مخايل الدبلوماسية تتبدى واضحة في هذه الرسالة من خلال الاناقة المفرطة في أسلوب التعبير ، الامر الذي جعل المعتضد فيما بعد يعهد الى ابن زيدون بالوزارة ، كما جعله يكلفه بالسفارة بينه وبين ملوك الاندلس وحكامها •

« ٨ »

وختام القول في هذا السبيل ان ابن زيدون كان مالكا لعنان الشعر ، فقد عمد الى الكتابة التقليدية التي تصور امتدادا للمدرسة المشرقية عمدا ، لم يفعل ذلك عن قصور غاية أو ضعف همة ، وانما فعل ذلك وَلاء لثقافة رأى أن تمتد جسورها ، واحتفالا برواد كبار رأى أن يكرمهم •

واختط ابن زيدون لنفسه خطة أصيلة ذاتية في الكتابة أيضا ، يعمد فيها الى الفكرة البكر والاسلوب المترسل غير المقيد ، ويمطر قارئه بما لا يحصى عدا من الحكم المتراكبة والامثال المتتابعة وابيات الشعر المتعاقبة واخبار القدامى التي لا يعرفها ولا يحفل بها الا الخاصة ، وربما غلا في ذلك غلوا ، فلقد احصيت له في ثلاث صفحات من رسالة بعينها أكثر من خمسين مثلا من امثال العرب بين منثور ومنظوم ، ناهيك ببراعة استشهاده بآيات القرآن الكريم واحاديث الرسول العظيم •

ويعمد ابن زيدون كذلك الى التميز واستهداف التفوق في رسائل بعينها ، ولعل المثل الاوضح في ذلك الرسالة الهزلية المشهورة ـ وقد مر حديثها ـ ولا بأس من الاستشهاد بالرسالة الجدية كذلك ، غير اننا نعتقد انه لم يعمد فيها الى ما استهدفه من الرسالة الهزلية ، فالرسالة الجدية كتبها مضطرا للدفاع عن حياته ، وأما الاخرى فقد كتبها متطوعا للنيل من غريمه في حب ولادة والاستهزاء به السخرية منه •

ويتميز ابن زيدون في كتابته ايضا ـ ربما دون قصد ـ بالترجمة لذاته وشرح أحداث زمانه وعلاج مشكلات عصره ، وكشف مساوىء معاصريه بحيث يمكن ان تشكل رسائله سجلا موثقا يفيد منه المؤرخ والاديب وعالم النفس واستاذ الاجتماع ، ومن هنا كانت بعض رسائله من الاطناب بحيث تعتبر من اطول الرسائل التي خلفها الكتاب العرب ، ومن البساطة بحيث تشفي الغلة ولا تبعث السأم أو تسوق الملل •

ولابن زيدون رسائل غنائية يعبر فيها عن كوامن نفسه وخبيئات اشجانه ولواعج صبابته فلقد كان ابن زيدون ـ حسبما ذكرنا ـ شاعرا وهو يكتب النثر، الامر الذي جعله يتميز بظاهرة ربما لم تظهر عند غيره من الكتاب بالصورة التي برزت لديه ، تلك هي الجمع بين الرسالة النثرية والقصيدة الشعرية على صعيد واحد ، قد يبدأ بالقصيدة ثم يكمل نثرا ، وقد يجعلها واسطة العقد ، وقد يجعلها مسك الختام ، صحيح ان بعض الكتاب عمد الى هذا النهج ، ولكن قصائدهم الملحقة برسائلهم لم تكن تتعدى بضعة ابيات أو بضعة عشر بيتا على الاكثر من الشعر الضعيف ، أما ابن زيدون فانه ينشىء الرسالة الطويلة الشاعرية المعاني ، الايقاعية الالفاظ ، ثم يضمنها القصيدة من عيون الشعر التي تصل في بعض الاحيان الى خمسين بيتا ، ان هذه الظاهرة تقودنا الى حقيقة هامة هي ان ابن زيدون كان يرى الصيغة الادبية متكاملة الاجزاء متناسقة البناء ، انها الشعر والنثر على حد سواء •

وقد يكون من الخير هنا في ختام هذا البحث ان نقرر ان ابن زيدون كان صاحب مشاركة في التصنيف ـ حسبما ذكر مؤرخوه ـ الى جانب الابداع في الشعر والتفوق في النثر ، لقد ألف كتابا لطيفا لصديقه أبي عامر بن مسلمة في اشبيلية اسماه « حديقة الارتياح في وصف حقيقة الراح » •

لقد كان ابن زيدون سراجا في سماء الاندلس ، وقيثارة في سمع الزمان ، عزف الكون على اوتارها أجمل الشعر واعذبه ، ورددت الدنيا من خلالها أروع النثر وأطيبه •

الدكتور مصطفى الشكعة

ابن زيدون

ومرايا الزمن

د. نذير العظمة

يا ابن زيـدون أي حـلم توارى ... ما لهذا الدجى يطيل الصحارا ؟ !
يا ابن زيـدون كـم لنـا نتساقى ... هـذه الـكاس كـم لنـا نتبـارى
الف عـام مرت وشـعرك رطـب ... تلثـم الشمس من جناه افتـرارا
وفـم الحب لـم يـزل يتروى ... من ورود صـارت عليـه احمرارا
قـل لسور الظـلام أن يشـرق الشعر ... تخطت أرواحنـا الاسـوارا
رفـرف الوحـي حولنـا فتهـاوى الليـل ... من رفـه سـتارا سـتارا
يا وجـوه الزمـان صمتـك حيف ... ارفعـي عـن جراحنـا الاسـتارا
نحـن والريـح والغنـاء ندامـى ... تنفـخ الـروح صـدرنا مزمـارا
أورقي حولنـا خـلودا وتيهي ... علقـي كعبـة الرؤى اقـدارا
واتركـي قلبـه يحـاور قلبـي ... باغـان تشـق رحـم الصحـارى
رن صـوت من شـدوه العذ ... ب في صدري فصارا حديقة وكنارا
فـاذا العمـر طـائر يتخطى بجنـاحي الهـامنـا الاعمـارا ! !

★ ★ ★

ايـه ولادتـي لنـا العمر ايـك ... والليـالي نقدهـا قيتـارا
كـل نجـم لـه من الرصـد لحـن ... مس أفـق الدجـى فهان وهـارا
سـال فيـه دم مـن القلب عطـر ... فـاذاب الهـوى لـه الاوتـارا
يا لنبض الربيـع من كـوة الصو ... ت يغنـي ويفـرش الازهـارا
زارنـي مـرة فاخصب روحـي ... ونسـي فـوق منكبـي الازارا
سـل من طـلة الصبـاح خيـالا ... لصبـانا وكرمـة مـدارا
واشـتكي العتـم عنـدنا دورة الشمس ... فسـوت مدارهـا فاسـتدارا
ومضى الليل هاربا من شقوق السو ... ر صـدرا ممزقـا وصـدارا
آه من يرسـم العواصـم للشـعر ويعطـي حصـاده والبـذارا ؟ !

آه من يبدع المواسم في الار — ض ويغني في توقعها الابحارا ؟ !

آه من يلبس العباءة والبحر ويبني من الضلوع منارا

آه من يفجر البداءة والحلم ويغني الابعاد والاغوار ؟ !

يا سفين الحياة والحب مهلا — آن للموج أن يصيب قرارا

أبد يشتهي وقلب طموح — يبدع النار اذ يرمد نارا

كلماتي دم تفتح وردا — وجراحي مواسما واخضرارا

أي أرض لا تعرف الحب ، أرض — جف في صدرها العبير وغارا

قل لمن عرف الهوى بقوام — منحته الاصداف طرفا معارا

اللآلي صيادهن شهيد — غاص في موته يفض المحارا ! !

يا ضلوعا قدست من عطش الحب فعانقت ماءها والجرارا

وترنمت في الرياح شراعا — وتوغلت في البحارا بحارا

يا لهيب العشق الطري ايغدو — كل جرح حديقة معطارا ؟ !

كلما نفرش الضلوع سريرا — لحبيب ، ونشكر الايثارا

يلمس الشوق من منانا ترابا — فيسويه عسجدا ونضارا

ما منحنا امارة الشعر الا — بعد أن خصنا الهوى أمارا ؟ !

كم سقيناه خمرة العمر بكرا — واستللنا من دنها الابكارا

وزرعنا صدر الحياة كروما — واعتصرنا صدورهن اعتصارا

كم سكبنا الدموع بين يديها — وشربنا دموعنا والعقارا

وتركنا احلامنا ارجوحة نشوى لديها وصبوة واغترارا

خل نبع الزمان يلمع آلا — في مدى العين ، خله يتوارى

فالقلوب العطاش في شفق الدهر انارت شغافها فانارا

تسكب الماء صحوة لا سرابا — وتغني حدائقها لا حوارا

★ ★ ★

أومأ الشعر حولنا يا ابن زيدو — ن واعطى الى القياصر غارا

الوزارات كلها فانيات — وله وحده البقاء اشارا

وابن عبوس خلف جنح الليالي — شاحب الوجه يشحذ المنقارا

يقتل النبض اينما يدرك النبض ويختال سطوة ودمارا

وشفاه الجراح تعبق بالعطر وتذري اصداءه نورا

فاذا الحب فرحة وشروق — لون القلب عندها الاسحارا

واذا العمـر طـائر يتخطـى دولـة الحقـد صولجـانـا ودارا

واذا الارض في المواسـم عـرس لبست من غنـائنا آذارا ؟!!

يا ابـن زيدون ضـم شعرك شعري لهبـا يتـرك الضـياء غبـارا

آه هـذي حـراق الحـب عنـدي تركت حـولي اللهيب سـوارا

آه هـذي حـدائق العمـر عطشـى قبلت في شـفاهنـا الامطـارا

اقفلوا الجمر في الصدور وسـالوا ودم الشمس في المغيـب استطـارا

المسافـات بيننـا يخطف الوحـ ـى مداهـا خطف الغـزال المسارا

والرباط الـذي يوحـدنا فتـ ـح وقـدس يشعشع الانـوارا

نلثـم الكعبـة العتيقـة فجرا كـل يوم ونلثـم الاثمـارا

صـور الحق اشـرقي وأضيئي دخـل المصطفى الى النفي غـارا

ما لمدريـد يا ابن زيـدون غالت فبنت حولهـا الحيـاة جـدارا

زينتهـا الـزهراء دهـرا فـردت زينـة الحسن والمحبـة قارا

غـير العالـم الضيـاء فغطت حـول ظـل بغـير الابصارا

يقتـل البـذر والبراعـم في الار ض ويغتـال حقـده الاشجارا

سد في حملهـا عروق الـدوالي كتـم في سرها الشذا والثمـارا

في مـرايا النهـر الكبـير وجوه رسم المـاء شكلهـا ثم ثارا ! !

كيف صار الوجود ليـلا أثيمـا بعـد أن كان يقظـة ونهارا ؟ !

أين يممت في مـلاعب مدريد بكـ ـيت الاقـواس والاقمـارا

الشبابيك لم يعـد يضحك الاطـ ـفال فيهـا والام تشكو احتضارا

فالطواغيت سمرتهـا عـلى البؤ س وأخلت من دورهـا الاحرارا

تقتـل الضوء عندما يولد الضـ ـوء وتمتـد مـن دمـاء دثارا

يا لغرناطة الفـدا كم أنال المو ت فيهـا كـؤوسه وأدارا ؟ !

ـمـدن في الشطوط محتجـزات وقفت حـدها البحـار حيـارى

سرق الظـل تاجهـا وأجـاع الوحش فيهـا ذئابـه وأغارا

ليس جرما أن يسرق الارض والبحـ ـر ويغتـال شمسنا والصحارى

يا ابن زيدون خـل اندلس الشعـ ـر ليهيبـا يدير فيـه الـدوارا

كـم فتحنـا الدنا خـزائن حرف فتحـت في حنينـه الاسفـارا

ونسي النجـم فلكـه فرسمنـا مـن جديد للعالمـين المدارا

أبهـج العـين في الرسوم رسوم هجـأت في قلوبنـا الاسـرارا

يحلف المجـد أننـا صفحـات سود الحبـر وجههـا فأنارا !

ايه مدريـــد نحن قنطـرة الشمـ ـــس فككنـــا عن فجـرك الازرارا
لـم نــزل فيـك نخــوة وابـاء لـم نــزل فيك مهجـــة واطارا
ايـــه مدريـد نحن بالنــور كسو نا الانســـان وهجـــا ونــــارا
لا يريـــح الطغــــاة انا لهـــاة ولـــدت في غنائهـــا الاعصارا ! !

* * *

يا صبايا الالهـــــام أي جنـــاح مس وجــدانى الرهيف فطـــارا
يتخطفن مهجـــتي وكيـــاني بافتـــرار يغــري عـــلي الفرارا
أين وسدت هامتي ينبض الوحـــ ـــي وأني استرحت ضج وجـــارا
صرت من غــربتي بأندلس الشعـ ـــر أغني الجــذور والاحجـــارا
فاذا بالصخـــور تسكب عنـــدي دمعهـــا والحـــدائق الاشعـــارا
مذكيا في الضلوع أشواقهــــا الاو لى بشذو زان القــريض وســارا
واذا صحـــبيّ خفـــاف من المـــ ـــس سكـــارى وما هــم بسكـــارى
يا ابن زيـــدون أيقظت كلمـــاتي في حمى المسجـــد الكبـــير حجارا
ليس بدعا ان صار صوتك صوتي فكلانا من نبعـــة الحب فارا ! !
ايـــــه ولادتي الى أيـــن أمضي أقفـــــل الحب في دمي الامصار
وذرتـــني الزهراء للبرق والر عـــد أغني تاريخهــــا المنهـــارا
كـــم تسلقت صخرها زمن النفـــ ـــي وفجـــرت فجرهـــا أنهـــارا ؟ !
وتركت الاحـــداق بالوحي نشوى سكـــرت منـــه وادعت اسكـــارا
يا ابن زيـــدون ما لريش جناحي مـــزق في انخطـــافه تتوارى ! !
المســافـــات شاوهـــن قصـــير لرمـــاد اذا استحـــال شرارا
تثب الروح حـــين يلبسها الحـــ ـــلم كقلب قـــد خففتـــه العذارى
وتصير الدنيـــا مجـــال جنـــاح يشتهـــي أن يصـــير ضوءا فصارا
الليـــالي عـــلى الصدور ثقـــال يا ابن زيـــدون فاذبـح القيثارا
يسطـــع القلب في ظـــلام المعانا ة ويسنل مـــن متـــاه منـــارا
لغـــة الحب أن نصـــير ضيـــاء خطفت وهجـــه الوجوه فحـــارا
لغة الحب أن نصير مـــع الزهرا ء حلمـــا مجنحـــا وابتكـــارا
لغـــة الحب أن نصـــير جمـــارا ورمـــادا لكـــي نصون الجمـــارا
أقفلوا النـــار في الصدور وشالوا يا ابن زيـــدون من يفك الاسارا

كلية الآداب ــ الرباط

الشاعر د. نذير العظمة

الرسالة الهزلية

من أبي عثمان إلى أبي الوليد

الأستاذ شارل بيلا

لقد اتيح لى ان اعتنى بالحركة الادبية في بلاط بني عباد باشبيلية ومما نويت دراسته من المواضيع الممتعة فرق ما بين شاعرين عاشا دهرا تحت جناح المعتمد وصاحباه، وفصل ما بين حظوظ رجلين تنافسا فرميا الى غاية واحدة ولهما من المواهب والحسب والخصال والنسب ما يتفاوت تفاوتا بينا ، ألا وهما ابن زيدون وابن عمار ، ففكرت حينا في هذا الموضوع ثم بدا لي ، فعزمت على طرق باب آخر من أبواب البحث ٠

فان ابن زيدون اشتهر بشاعريته الصحيحة وتميز عن كثير من شعراء القرن الخامس المقدمين عند ملوك الطوائف بملكيته وصدقه وعفويته حتى جاز القول بانه ليس بناظم فحسب بل استحق ان يسمى شاعرا بكل ما يقتضي هذا الاسم الجميل لمن ينتحله من شدة الحساسية وأصالة البلاغة وسعة الحفظ والمعرفة وغير ذلك من الخلال المحمودة ، ومع ذلك لقد شاهدت ان بروكلمان لم يذكره مع شعراء الاندلس بل ترجم له في الفصل الموسوم بالنثر الفني ، فهذا أمر عجيب قد يدعوا الى التساؤل عن علة بروكلمان في اختيار هذا الترتيب وهو ممن له خبرة لا تنكر بالادب العربي ، فلست أريد أن أطرق اليوم هذا الباب من البحث والمناقشة ، وانما لاحظت ان أشعار ابن زيدون ظلت متبددة في كثير من الكتب الى ان حقق الديوان ونشره كامل الكيلاني وعبد الرحمن خليفة بالقاهرة سنة ١٩٣٢٠ وأما رسائله فمعلوم أن الصفدي شرح الجدية شرحا وسمه بتمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون بعد ان كان ابن نباتة شرح الهزلية في كتاب ضخم سماه سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ، وقد طبع نص الرسالة وشرحها قبل الديوان بسبعين سنة في الشرق اذ نشرا بالقاهرة سنة ١٢٨٢/١٨٦٢، ثم أعاد طبعهما محمد أبو الفضل ابراهيم بالقاهرة أيضا سنة ١٣٨٣/١٩٦٤، فلا يخفى أن شرح ابن نباتة للرسالة الهزلية عبارة عن موسوعة لكثرة ما رأى الشارح ان يدلي به من الاخبار ويرويه من الاشعار ايضاحا لما لمح اليه ابن زيدون من الحوادث والوقائع واشار اليه من الابيات والامثال التي لا يعرفها بل لا يفهمها الا ذو حفظ واسع ورواية وافرة واطلاع كثير ، وبما أن سرح العيون يشتمل على نصيب لا يستهان به مما يكون الثقافة العربية الاصيلة كان حقيقيا بأن يعتني بطبعه في عصر النهضة ٠ اما الرسالة نفسها فموجودة في صدر سرح العيون وفي ملحقات الديوان وفي مخطوطات عديدة محفوظة في المكتبات العالمية ، ومن طريف الاتفاق ان هذه الرسالة البديعة طبعت للمرة الاولى في ليبزغ سنة ١٧٥٥ مع ترجمة لاتينية بعناية المستشرق ريسك ، ثم أعيد طبعها في اينا سنة ١٧٧٠ ، مما يدل على رواجها ، فيغلب على الظن أن ريسك انتبه الى ما تتضمنه من الفوائد فاعتبرها ملخصا قريب المتناول وجعلها تحت تصرف طلاب اللغة والثقافة العربيتين واستعملها في تدريسه مستندا بلا شك الى مخطوط من مخطوطات سرح العيون ، فيبدو ان س٠ دي ساي حذا حذوه حين رأى من المفيد أن ينشر مقامات الحريري ويشرحها تسهيلا لتعليم اللسان العربي والراجح ان كلا المستشرقين غض الطرف عما للاثرين من القيمة الادبية ٠

هذا ، وقد كنت انتبهت عند قراءة الرسالة الهزلية الى وجود مشابهات واضحة بينها وبين بعض ما خلفه الكاتب الذي وقفت عليه نصيبا وافرا من ابحاثي والذي يترتب على جميع الباحثين ان يعولوا عليه ويرجعوا اليه كان جنسه وشكله ، حتى قلت مرة اني لو دعيت الى القول عندما يشرعون في دراســـة موضوع من الموضوعات مهما في تربية النحل أو تحديد النسل لما استغنيت عن الاعتماد عليه والاشادة بذكره ، لقد فهمتم ان ذلك الشخص الفريد والكاتب الفذ ليس الا صديقي العزيز ابا عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ •

ليس من نيتى ـ والحالة هذه ـ ان احاول موازنة مفصلة بين ناثرين مختلفي الزمان والمكان متفاوتي النبوغ والسمعة لا يرى الناقد بينهما علاقة بينة في ظاهر الامر ولا رابطة خفية في باطنه ، ومع ذلك فاني على يقين بأن هذا السر المكنون سيكشف عنه أول سؤال يتبادر الى الذهن وهو : لما أراد ابن عبدوس ان يحل محل ابن زيدون في قلب ولادة بنت المستكفي وراودها على نفسها انشأ أبو الوليد « يقول في هذه الرسالة البديعة ـ هنا أروي قـول ابن نباتة ـ تتضمن غرائب من سب ابن عامر والتهكم به والهجاء له وجعلها جوابا له على لسان ولادة وارسلها اليه عقيب رجوع المرأة فبلغت منه كل مبلغ واشتهر ذكرها في الآفاق وأمسك ابن عبدوس عن التعرض لولادة الى ان انتقل ابن زيدون الى اشبيلية وما بها » ، لماذا يا ترى كتب هذه الرسالة مع قدرته وقدرة ولادة على قول الشعر واختار النثر على النظم ليهجو خَصمه ومنافسه وكيف بلغ غايته وهل ابدع أو نسج على منوال من تقدمه ؟

سأكتفي بالاجابة على السؤال السابق في الحديث الذي اتشرف بالقائه وأراني غير مفتقر الى اطالة الكلام في ولادة لاني أظن أن أحدا من الزملاء الكرام سيأتي في شأنها بأخبار طريفة وتفاصيل مجهولة ممتعة •

فان نحن القينا نظرة اجمالية على تاريخ الادب العربي منذ أقدم عصوره شاهدنا لا محالة ان الادب الحقيقي لا يعدو الشعر في بداية أمره والاحرى أن أقول أنه لا يتخطى النظم أي ترتيب الالفاظ ترتيبا معينا يخضع لقوانين شكلية ، فيراعيها الناظم تلقائيا دون ان يحتاج الى تعلمها ويعبر اما عن أغراض تقليدية ثابتة لا تمت الى عواطف المرء بصلة بل تتطلب قدرة خاصة على اختيار الالفاظ وتنسيقها، واما عما يشعر به من السعادة والالم ومن التعاسة والامل ومن العشق والحقد ومن الحب والكراهية وغير ذلك من المشاعر والاحساسات ومن الانطباعات والتأثرات ، وفي كلتا الحاليتين لم يزل القريض منذ الجاهلية يستأثر بالاغراض الفنية وينفرد بالمعاني الجمالية ، فلا يمكن النثر افتتاح الحصول المنيعة التي يتحصن بها ما يقال له الشعر ، أو بعبارة أخرى ظل الادب العربي زمانا طويلا لا يمثله الا القريض ولا يستخدم وسيلة أخرى من وسائل التعبير الفني ثم نزل القرآن فظهر للابصـــار والاستماع ان النثر ، مسجعا أو مرسلا قد يرتدي شكلا جماليا فاجمع المسلمون على الاقرار باعجاز الكتاب المنزل وانما اعتبروه فريدا من نوعه وما اجازوا معارضته ، فلذلك استمر النظم مزدهرا مستأثرا بالاغراض الادبية دون أن يزاحمه النثر الناشىء وينازعه ميادينه الخاصة، ثم ترقت الثقافة العربية فنجم عن تطورها تغير محسوس في الاذواق حتى أصبح من المحتوم أن يرهف النثر وينمو نموا شجع كتاب الدواوين على استعماله في رسائل مبتدعة وكتب مطولة تتناول موضوعات خارجة عن نطاق النظم التقليدي ، كما ان الشعراء انفسهم جعلوا يطرقون أبوابا جديدة غير معهودة ، فان ابن المقفع وعبد الحميد وسهل بن هارون وامثالهم ممن ذكر في الرســالة الهزلية قاموا بدورا هام في ترقية النثر الفني ولهم اليـد البيضاء في تهذيب الاسلوب الا أنهـــم لم يتجاسروا على منافسة الشعراء ، فظل المنظوم والمنثور يسلكان مسالك متباعدة صارت متوازية في بعض الاحوال وانمـــا نعلم منذ أقليديس ان الخطوط المتوازية لا تتلاقى ابدا ، وخلاصة القول كالمدح والهجاء والرثاء •

ثم جاء ابو عثمان فمدح نثرا وهجا نثرا ورثى نثرا وأحل المنثور محل المنظوم ، وان لم تصدقوني فطالعوا رسالته في موت أبي حرب الصفار أو رسائله الى محمد بن عبد الملك الزيات ومحمد بن أحمد بن أبي دؤاد أو هجاءه محمد بن الجهم البرمكي تجدوا فيها شعرا حقيقيا صادقا يأتي من صميم الفؤاد ويبرز في كل سطر من رسائله ، فلعل قائلا أن يقول ان الجاحظ غير ناظم فلم يكن لديه من وسائل التعبير عن افكاره وعواطفه الا النثر المرسل فاستعمله واجاد ، اجل ، ولكنا ان فحصنا عن حقيقة النظم لاحظنا ان الناظم لا يمكنه الا بصفة اصطناعية ان يعبر عن كل ما يجيش في قلبه ونفسه ويخطر على باله وذهنه لانه مقيد تقيده العروض فيضطر الى مراعاة الوزن والقافية ، ولا تسمح العروض باستعمال الفاظ لا تدخل في قوالب التفعيلات التقليدية لمكان هيكلها الصوتي ، وان كانت شعرية الروح والجوهر ، ولست بحاجة الى ذكر قيود أخرى تبرر أيضا محاولات الشعراء المعاصرين الذين يرمون الى التحرر من العروض والتخلص من عمود الشعر .

ولما لم يكن في عصر ابن زيدون ما يضاهي الشعر الحر فهمنا السبب الذي من أجله فضل النثر على النظم ليهجو ابن عبدوس ولا سيما بعد أن استطاع ان يقرأ عدة نماذج من الهجاء المنثور ، منها كتاب التربيع والتدوير للجاحظ ، فلا يجوز ان يعميني اعجابي بهذه التحفة الفريدة وابخس ابن زيدون حقه ولكن يجدر بي أن أدلي بخبر يدل على ان التربيع حملته الركبان الى الاندلس .

وذلك ان الحميدي حكى عن رجل من بلده قال : « وقع الينا كتاب التربيع والتدوير له (أي : للجاحظ) فاشاروا اليه ثم اردفه عندنا كتاب البيان والتبيين له فبلغ الرجل الصكاك بهذين الكتابين » ، ولا شك في أن ابن زيدون قرأه وحفظه ، والى جانب ذلك نعلم ان كتاب القرن الرابع الذين اشتهروا بابتكار انتاجهم الادبي وبراعة مؤلفاتهم كالهمداني والخوارزمي والتوحيدي حذوا حذو الجاحظ فنقلوا بعده الفنون المذكورة من ميدان الشعر الى ميدان النثر ، غير ان الاسلوب كان في عصرهم قد تطور فتغلب السجع على النثر المرسل وتحلى ببعض حلى النظم واستعار منه القافية وأنواع البديع وهيمن على فنون الادب كلها .

والآن فلنضرب صفحا عما خلفه الجاحظ من المدح والرثاء المنثورين ولنقتصر على جانب من هجائه ، فان قارنا الرسالة الهزلية بكتاب التربيع والتدوير كان اوضح من عين الشمس ان كليهما صادر من مصدر واحد ولهما مميزات شبيهة بعضها ببعض ، منها ان كل احد منهما صعب الادراك يتطلب شرحا ضافيا ، وكما ان ابن نباتة شرح الرسالة الهزلية فكذلك اضطررت الى توضيح التربيع وانما اكتفيت بالاهم الانفع فخصصت ٢٧٥ صفحة لشرح ١٠٥ صفحة بيد أن الرسالة الهزلية تحتل خمس صفحات في طبعة محمد ابي الفضل ابراهيم ويمتد شرح ابن نباتة على ٤٦٣ صفحة ، فلو أردت أن أذهب مذهبه واسلك مسلكه وافسر كل ما لمح اليه الجاحظ تفسيرا مفصلا لزاد شرحي على ٤٦٣ صفحة ، مع أن التربيع ليس كله هجاء مستمرا بل تتخلله مسائل مختلفة وفقرات عديدة تخرج عن الموضوع الاصلي ، فهذه مماثلة واحدة تنتج من مشابهة المضمون العام .

ومن ناحية أخرى تتشابه الى حد من الظروف التي ادت الى الهجاء في كلتا الحالتين اذ سببت انشاء النصين امرأة حسناء من بنات الملوك في الهزلية ومن القيان في التربيع ، ثم تختلف بقية الخبر ، فانه كان لصالح بن عبد الوهاب قينة تسمى بقلم الصالحية ، فلما سمعها الواثق تغني شعرا قاله أحمد بن عبد الوهاب اخو صالح تاقت نفسه اليها وحرص على اشترائها ، ولكن صاحبها غالى في ثمنها فطلب مائة الف دينار وولاية مصر ، ثم بعد خطب طويل اهداها الى الخليفة ، فأمر الواثق وزيره ابن الزيات بدفع خمسة آلاف دينار الى صالح ، فأمسك ابن الزيات عن

ادائها الى ان اكره على الامتثال بأمر الواثق ، فيبدو انه حض الجاحظ على الاخذ بثأره فوضع صديقي الكتاب ووجهه الى أحمد بن عبد الوهاب قائل الشعر الذي تغنت به قلم الصالحية وقال في كتاب الحيوان انه جعل الهجاء من جنس المزاح فكتب به الى بعض من يدعي – علم كل شيء وجعله من باب المسائل ، فيختلف التربيع عن الهزلية في هذا الباب لان ابن زيدون لم يسأل ابن عبدوس ان يخبره بكيت وكيت ، ويشبهها في ان الكاتبين تعمدا المزاح •

وقد صدر الجاحظ كتابه بوصف يذكرني لا برويير فقال : « كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ويدعي انه مفرط الطول ، وكان مربعا وتحسبه لسعة جفرته واستفاضة خاصرته مدورا ، وكان جعد الاطراف قصير الاصابع وهو في ذلك يدعي السباطة والرشاقة وانه عتيق الوجه اخمص البطن معتدل القامة تام العظم وكان طويل الظهر قصير عظم الفخذ وهو مع قصر عظم ساقه يدعى انه طويل الباد رفيع العماد عادي القامة عظيم الهامة قد أعطى البسطة في الجسم والسعة في العلم ، وكان كبير السن متقادم الميلاد وهو يدعي انه معتدل الشباب حديث الميلاد ، وكان اعداؤه لاصناف العلم على قدر جهله بها وتكلفه للابانة عنها على قدر غباوته عنها ، وكان كثير الاعتراض لهجا بالمراء شديد الخلاف كلفا بالمجاذبة متابعا في العنود مؤثرا للمغالبة مع اضلال الحجة » الخ •••

فوصف خلقه قبل ان يتطرق لخلقه ثم لم يزل يستهزىء باحمد فيخاطبه تارة ويسائله أخرى فيقول مثلا : فيا قعيد الفلك كيف امسيت ؟ ويا قوة الهيولي كيف أصبحت ؟ ويا نسر لقمان كيف ظهرت ؟ ويا أقدم من دوس ويا اسن من لبد ويا صفى المشقر ويا صاحب المسند حدثني كيف رأيت الطوفان ومتى كان سيل العرم •

لقد لاحظتم ان الجاحظ يتلاعب بضحيته بدون تصنع فيشير الى اخبار الماضي ويقتبس من القرآن بدقة وخفة فلا يسجع بل يتألف اسلوبه من وحدات متوازية مترادفة تنسجم انسجاما جميلا فلما لجأ الكتاب الذين ذكرتهم الى تنميق الاسلوب وأبوا الا ان يسجعوا رسائلهم وكتبهم قلدهم كتاب الاندلس تقليدا مأسوفا عليه ، حتى جعل ابن شهيد ، رسالة التوابع والزوابع على لسان ابي عيينة تابعة الجاحظ قولا لا يخلو من ان يلفت الانتباه • « انك لخطيب وحائك للكلام مجيد لولا انك مغرى بالسجع فكلامك نظم لا نثر » ثم قال صاحبا عبد الحميد والجاحظ : « ان لسجعك موضعا من القلب ومكانا من النفس وقد اعرته من طبعك وحلاوة لفظك وملاحة سوقك ما أزال أفنه ورفع عينه » ، فلم يتمالك ابن شهيد من وضع كلام مسجوع على لسانهما ، والى مثل ذلك الحكم في السجع ذهب ابن نباتة اذ قال : « فاما نثره (أي نثر ابن زيدون) فانه أكثر فيه من استعمال أمثال العرب وجل اشعار المتقدمين والمتأخرين الى ان قيل ان رسائله اشبه بالمنظوم من المنثور ، وعلى ذلك فقد دل بها على اطلاع معجب واستحضار معجز ، وقد اكتفيت منها بذكر هذه الرسالة المشروحة » يعني الهزلية •

لقد رأينا ان الجاحظ صدر كتاب التربيع والتدوير بوصف أحمد بن عبد الوهاب ثم وجه اليه الكلام في فقرات متفرقة فقال مثلا وهو يستهزىء به : « وفيك امران غريبان وشاهدان بديعان : جواز الكون والفساد عليك وتعاون النقصان والزيادة اياك فجوهرك فلكي وتركيبك ارضي ففيك طول البقاء ، اما ابن زيدون فيخاطب ابن عبدوس راسا في صدر الرسالة ويصفه وصفا خبيثا ويهجوه هجاء لاذعا فيقول : « ايها المصاب بعقله والمورط بجهله البين سقطه الفاحش غلطه » ويكثر من صفات السوء ثم يذم خصمه ذما شديدا لانه جعل عشيقته قوادة فأرسلها الى ولادة لكي تصفه لها باجمل أوصاف الخير فزعمت « ان المروءة لفظ انت معناه والانسانية اسم أنت جسمه وهيولاه ، قاطعة انك انفردت بالجمال » الى آخر الوصف المتصنع الذي تتدفق فيه التلميحات الى حوادث الماضي •

وتتكاثر أسماء أشخاص التاريخ كيوسف وقارون وكسرى وقيصر والاسكندر واردشير والضحاك من غير العرب ، وبلقيس ومالك بن نويرة وعروة بن جعفر وكليب بن ربيعة والسموءل والاحنفوقيس بن زهير وسحبان والحجاج والمهلب بن ابي صفرة من العرب ، فتدعي المرأة لصاحبها فضلا عن كل واحد من الاعلام ، ثم تعود الى الفلاسفة والحكماء القدماء امثالهرمس وبلينوس وإفلاطون وأرسطو وبطليموس وبقراط وجالينوس ومن جاء بعدهم من العرب امثال ابي معشر وجابر والنظام والكندي والخليل بن أحمد وعبد الحميد وسهل والجاحظ ومالك ، يلاحظ ان الجاحظ ذكر معظم الاسماء السابقة ، والفرق بين الكاتبين ان ابن زيدون قال مثلا : « وان هرمس اعطى بلينوس ما أخذ منك وأفلاطون أورد على ارسطا طاليس ما نقلعنك وبطليموس سوى الاسطرلاب بتدبيرك وصور الكرة على تقديرك » بيد ان الجاحظ اكتفى بقوله : « فخبرني عما جرى بينك وبين هرمس في طبيعة الفلك وعن سماعك من افلاطون وما دار في ذلك بينك وبين ارسطاطاليس » مع أنه قال في موطن آخر : « وزعم اسماعيل بن علي انك انت الذي كنت أمرت باتخاذها (أي اتخاذ النعال السندية) وأشرت بصنعها وانك تكتم السر الذي فيها ، انك الذي علمتهم مضغ التانبول ودبغ تحمير الاسنان وتطييب النكهة وأكل السعد لما أنت أعلم به والتصندل لما لا يجوز المكاتبة فيه ، وانك أول من احتبى هناك واستاك وفرق شعره وعلم الخضاب اهله » فلا يتجاسر الجاحظ على رفع احمد بن عبد الوهاب الى منزلة أعلى من منزلة الفلاسفة ويقتصر على الاشارة الى ما اخترعه في بلاد السند والهند ، ومع ذلك فلا شك أن أبا الوليد عارض ابا عثمان في هذه الفترة الطويلة التي جعل فيها ابن عبدوس معاصرا لجميع من ذكرهم من الاعلام على غرار ما فعل الجاحظ وتجاوز حده حين جعل بطله معلما لهم أو سيدا ٠

ثم يستمر وصف المرأة لمولاها ، فزعمت « انك الذي أقام البراهين ووضع القوانين وحد الماهية وبين الكيفية والكمية ٠٠٠٠ وفك العمى وفصل بين الاسم والمسمى » في ميدان النحو « وتصفح الاديان ورجح بين مذهبي ماني وغيلان، ثم انك لو شئت خرقت العادات وخالفت المعهودات فاحلت البحار عذبة وأعدت السلام رطبة ونقلت غدا فصار أمسا وزدت في العناصر فكانت خمسا » ٠

يبتدع ابن زيدون فيما يلي من الرسالة ويبتعد عن طريقة الجاحظ حينا فيذكر أن ولادة أمسكت عن ضرب المرأة لذمة الجوار وحرمة الضيافة ، ثم يعود الى وصف ابن عبدوس بل الى نقيض ما وصفته به عشيقته لانها لاحظته بعين كليلة عن عيوبه ولولا ذلك لالفته هجين القذال أرعن السبال وهلم جرا ، فيطيل ابن زيدون تعداد مساويه الخلقية والخلقية ٠

مساو لو قسمن على الغواني لما امهرن الا بالطلاق

ويختتم الفقرة بقوله : « فوجودك عدم ، والاغتباط بك ندم ، والخيبة معك ظفر ، والجنة معك سقر » فتبرز مقارنة سريعة بين المدح الكاذب ، والذم الصادق ، ان ابن زيدون تأثر في هذا الباب بالجاحظ اذ كان مولعا بمدح الشيء ونقيضه وذم الشيء ونقيضه ٠

ثم يقابل مساويه بمحاسن ولادة : « كيف رأيت لؤمك لكرمي كفاء وضعتك لشرفي وفاء » ويشير الى تعاليها عنه ، ومع أعدائه لرواية الاشعار وحفظ السير والاخبار لما انتبه الى ما حدث لمن رمى الى غاية منيعة يضيق ذرعا عن بلوغها ، فيغتنم ابن زيدون هذه الفرصة السانحة بل يحدثها لرواية أخبار وأمثال تدل على أن ابن عبدوس ليس الا واو عمرو ، ولو غير هندامه لما وفق الى تحقيق رغبته لان من تنفرد به ولادة ـ يعني ابن زيدون نفسه ـ له من القوة والشهوة واللذة ما ليس لمنافسه الذي قد نضب غديره ونزحت بيره ، وفي الختام تطالب ولادة بالندامة وتهدده ان عاد الى ما نهى عنه بأشد العقوبات وأفظعها ، وذلك « بما قدمت يداك لتذوق وبال أمرك وترى ميزان قدرتك » ٠

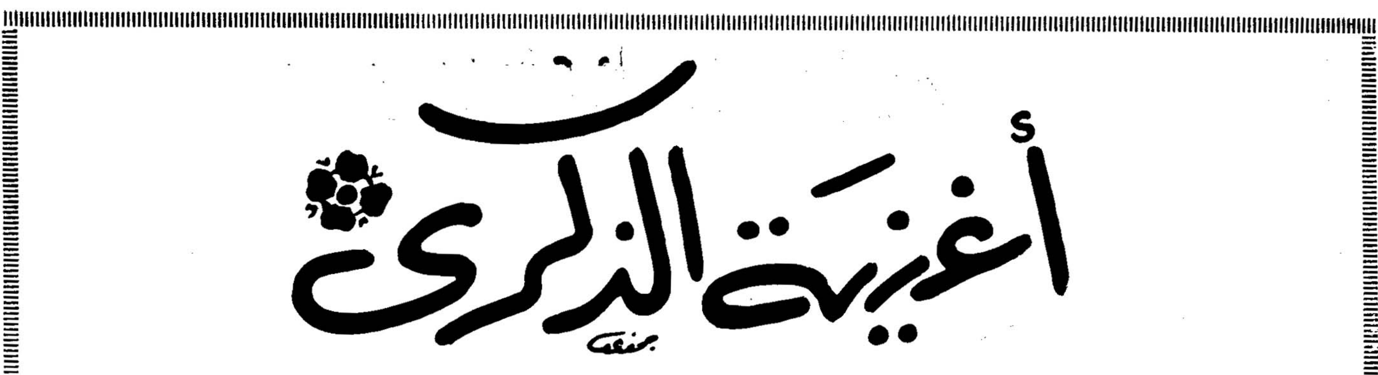
يبدو مما تقدم من المقابلة أن ابن زيدون كان على علم بما كتبه الجاحظ في التربيع والتدوير ، فاستقى من هذا الكتاب بعض الافكار وعارضه في قسم من رسالته ، ولما لم يكن بطبيعة الحال ليقلده تقليدا أعمى ابتعد عنه في عدة وجوه منها أنه استعمل السجع من أول الرسالة الى آخرها ، وأكثر من ذكر الاعلام فبالغ في ذلك الى حد أن القارىء قد يستقبل اليوم هـــذه السلسلة الطويلة التي تظهر كأنها « تكلف للابانة عن أصناف العلم » • وأكثر أيضا من ذكر الامثال والاشعار بل من التلميحات الخفية الدقيقة الى أبيــات قل من يحفظهــا فيتطلب فك ألغازها حفظا واسعا واستحضارا سريعا •

فقد أبديت آرائي بين نصين أدبيين من المشابهات البينة والفوارق الواضحة واعلني قد أوهمتكم اني ظلمت ابن زيدون ولم انصفه اذ لا يقاس أحد بالجاحظ ولا يكال بكيله ، ومع ذلك يدل اعتنائي بالرسالة الهزلية على انني أتذوق مضمونها واسلوبها لاني أفضل الهزل على الجد في كثير من الاحوال ولا أكره السجع البتة فاستحسن حياكة للكلام بديعة ، وصياغة للالفاظ بليغة ، فأتذكر اني ألقيت مرة محاضرة عمومية وقد كنت تلهيت بتسجيع مقدمتها فلما انتهيت الى لب الموضوع قلت ما معناه : « والآن وقد أمللتكم بسجعي المعقد أتطرق لموضوعي بكلام غير متصنع » فانشرحت عندئذ صدور الحاضرين فضحك البعض وتبسم البعض وأحسست بأنهم كانوا يتوقعون متابعــة الحديث المسجوع ويتأهبون للخروج من قاعة المحاضرات ، فأعتقد اذن بأن الناشئة النابتة ترفض السجع رفضا قاطعا لانها تؤثر أسلوبا سلسا سيالا ولا ترى الرسالة الهزلية بعــين الاستحسان لانها عبارة عن تمرين مدرسي لا قيمة له من الوجهة الادبية ، فلست ببعيد عن موافقتها على مثل هــذا الحكم ، ولكن يجدر بي أن ألفت الانتباه الى أن تمريننا مدرسيا قد يسمى تحفة لا نظير لها في الادب العربي فان رسالة التوابع والزوابع علىما ادعيته شاهد واضح، وعلى وجوب الاعتبار دليل قاطع •

شارل بيــلا

● « الامل » هو كتاب الاديب الفرنسي المعروفاندريه مالرو ، يتحدث فيه عن الحرب الاهلية الاسبانية وفي رأيه : أن النار عندما تندلع قادرة على تطهير البندقيةالتي تندلع فيها ، لكن الصحيح أيضا أن الانسان ، ان عجز عن التحكم بها ، تحكمت هي به • وقد كانت المآسيوالكوارث جميعها في العالم ناجمة عن هذا العجز •

● تصدر المكتبة المركزية للمكفوفين في « لايبزيغ »حوالي ستين كتابا للاطفال في كل سنة ، تستخدم طريقة « بريل » كمــا تستخدم أشرطــة التسجيل ، وفي ألمانيــاالديموقراطية حوالي ٣٠٠ طفل مكفوف ، خصصت لهم مدرسة يتعلمون في السنوات الثلاث الاولى استعمال خطالمكفوفين ، وفي السنة الرابعة يتعلمون خط المكفوفــين المختزل • وتقوم المكتبة بطباعة هذه الكتب ، وثمــةامكانية لشرائها • أما الاشرطة ، فتعار ولا تباع •



حسن الطريبق

ما شفت الوجد حتى شع مطلعـــه ... عـــلى حروفك موصول التباريح
يموج فيك يتيـم الروح ، ليس به ... اذا سرى ، غيـر أنفاس من الروح
ضجب به الرغبات اليوم وانتعشت ... به الرؤى وازدهت في كل تلميح
يا شاعر الحب ، ان الشعر ما نطقت ... به النفوس شفيفا كالمصابيـــح
يحيي المنى ، ويمـد الحب زغردة ... شجيـة اللحن في أعمـــاق مجروح
أجهـدت قلبك في عشق الجمال ، وما ... سلوته ، فقطعت العمـر في البوح
من ظلمـة البين تلقى في جوانحنا ... ما في النشيد ازدى أو في التواشيح
يا شاعر الحب ، في ذكراك أغنية ... تشجي النفوس بلا صوت وتصريح
كأنهـــا لمعـــان الطهـر وزعـــه ... نبع الرضى في تراتيـل التراويـح
أو أنها الدمع مسفوح الجداول في ... درب المنى ، لهفا ، أو غير مسفوح
ذرفت من قطرات القلب لوعتـــه ... مشبوبة الحس لا دمـع التماسيح
ما اغرورقت مقلة أو جف مدمعها ... حبا ، فانك فيهـــا جـد مفضوح
لا تلمـع الصور الهيفـــاء أمنية ... رقيقـة في حشا الجرد المساميـــح
الا اذا ابتلت الاحنـــاء أو يبست ... دروبهـــا من لظى آه وتجريـــح
يا شاعر الحب ، ما مدت يداك الى ... مواطن الحسن يوما ، دون تلويح
الزهـر ماؤك ، والانسام سارية ... في كل أفق صبيح اللون ، مفسوح
تلقى المنى زمرا شتى ، تسربلهـا ... الانداء في أرج يختـــال في الريح
آب الهيام من « الفردوس » ملتهبا ... عـــلى تأود لحن غـــير مشروح
يومي بعاطفـــة ما أوغلت مهـج ... مفتونة في لظاها ، دون تسبيـح
فيها ارتمى السعي لايلوي علىهدف ... سوى التواجـد في عمق التباريـح
لم ينطفيء لهف «أضحى الثنائي» به ... يلقى عـــلى كل تجديف وتطويح
ينوب منك التجافي ، لا يواكبــه ... الا أسى يتوالى في الجواريـح
أوفاك من وجـــع التسهيد خلوته ... حتى احتواك وألقى بالمفاتيـــح
فقمت تنسج من نبض الصبابة ما ... يحيل روحـين في الدنيا الى روح
وشحت باللهف الاصدى لواعجنـــا ... حتى غدت كلهـــا في خـير توشيح
سرحتها من حواشي الليل،فانطلقت ... جذلى بما بلغت من كل تسريـــح
فكـــم حملت لنا من كل داليـــة ... أحلى الكؤوس وأشهى ما على الدوح
يا شاعر الحب ، كم ذوبت من نغم ... ومن نشيد نـدي غـــير مبحوح
غرد فمـــا اهتز في أرواحنا وتر ... الا اذا هـــزه لحـن المجاريـــح

رسائل الأصدقاء

الى حضرة الاستاذ ناجي جواد حفظه الله

سيدي المحترم بعد تحياتي القلبية اخبر سيادتكم انني تسلمت بمزيد الامتنان كتابكم الهام المعنون برحلتي الى افريقيا العربي فأنني تعجبت كيف علمتم اسمى ووجودي في العالم مع اني اقيم بعيدا عن الناطقين بالضاد وتعلمت تلك اللغة الصعبة بواسطة الكتب العربية جالسا على على كرسي اللكن مع تقدم سني الى ٩٠ عاما نجحت الى درجة واستطيع ان أخدم بجهودي العلمية العروبة والاسلام٠

انني اشكركم من صميم فؤدي هديتكم النفيسة وقرأت اثركم ما بين الدفتين وتسلذذت بأسلوبكم السلس البديع ومحتويات كتابكم أثر فيّ ايما أثرا واستفدت منها ولا سيما لاني لم ازر ليبيا فعلمت اخبارا ثمينة من فصول تجوالكم مع عقلتهم الكريمة والاخبار التاريخية جلبت اهتمامي مثل الفصل عن السنوسيين ومزاياهم وخدمتكم في سبيل الدين والاخلاق ضد الخرافات التي استعملها بعض الشيوخ الجهلاء فأنشأوا كعبة زائفة مجلب الناس الى زيارتها في غير مكانها الحقيقية في مكة المكرمة فأنني قرأت في بعض الجرائد المجرية ان شريطا اجنبيا استعد في المغرب الاقصى لاطراحه علىمسرح الصور المتحركة دعاية في أوربا واعترضت على ذلك المشروع اعتراضا شديدا ٠

ان الفصول عن مكان المرأة في ليبيا قبل تحرير البلاد جديرة لترجمتها الى لغات شتى لان حكم العثمانيين بيد أنهم كانوا مدافعين عن الدين الاسلامي في معارك القتال اهملوا تدريس الدين الحقيقي وانتشرت الاساطير والخرافات الشعبية الزائفة المضرة للخلق السليم وصحة المواطنين ــ اظن ان اثركم يخدم ترقي الثقافة ورفاهية المسلمين ولكم الشكر الجزيل وارجو ان تتفضلوا بقبول تشكراتي واحترامي الفائق من مخلصكم حاجي عبد الكريم جرمانوس ٠

المجر (٢١ـ٤ـ١٩٧٥) **عبد الكريم جرمانوس**

الى الشاعر المبدع اسماعيل عامود ــ دمشق

عندما قرأت اشعارك الاولى (من أغاني الرحيل) شعرت أن الكلمات تبعث في اعماقي احساسا خلاقا ٠وعندما قرأت (كآبة) أحسست أن من خلف الكآبة ينبثق الحب والفرح ٠ أما عندما قرأت (التسكع والمطر) ٠ وكان ذلك في دمشق عام (١٩٦٣) أحسست وأنا اتسكع فوق الارصفة الرمادية أن هذا الديوان يحكي حكايتي ــ أنا ــ مع التسكع والحب والمطر ٠٠٠ كلمات نفذت الى أعماق القلب فتركت آثارها واضحة الملامح ٠ ومن يومها أحببت اسماعيل عامود ــ الشاعر المبدع ــ ٠

وصلني ديوانك الجديد أغنيات للارصفة البالية ٠ وأرجو أن يمدني بمثل تلك السعادة التي منحتني ــ أياها ــ دواونيك السابقة ٠

الى الاديب عيسى فتوح ــ دمشق

اشكركم على هديتكم القيمة ــ عندما جاءت عصافير الدوري ــ الديوان الشعري المترجم للاطفال ٠ وقد وجدت اضافة جديدة لمكتبة الطفل العربي ٠ وهو خطوة جادة لامداد مملكة البراعم الصغيرة٠ وتغذيتها بحكايات ملونة من حكايا الشعوب المجاورة الصديقة ٠

ان مكتبة الطفل العربي تشكو فراغا كبيرا لا يمكن ملؤه الا بكتب واعية مفيدة٠ وأقاصيص تنير له الدرب الى مستقبل مشرق زاهر ٠٠ وقد جاء الديوان المترجم (عندما جاءت عصافير الدوري) للشاعرة البلغارية ليدا ميلفا ٠ ليسد بعض الفراغ وليقدم لعقل الطفل العربي وجبة شهية من الغذاء الفكري المشحون بالحب والمعرفة والفكر٠٠

وهذا ما ينشده ويطمح اليه ·

استلمت ديوانك الذي يفيض بالشعر المحبب(ضحايا)

الى الشاعر خليل عارف جعلوك ــ حلب

وقد أنست فترة بصحبته في رحلة ممتعة عبر عالم الكلمة المبدعة ··· ولقد لفت نظري في الديوان قصيدة يتيمة خاصة بالطفل العربي ··· عندما قرأتها عادت الى مخيلتي الطفولة ··· انها رعشات حب أبوي ·· من النادر أن احلام الطفولة · ونقلتني الى عالم من البراءة والحلم نقرأ قصيدة مماثلة لها في شعر هذه الايام ·

وكم كنت اتمنى أن يكون في الديوان أكثر من قصيدة عن الاطفال · المستقبل الواعد الذي يتبرعم ألقا في عيونهم ويتجسد أملا مزهرا في سواعدهم وهم عدة الامة · وبناء صرحها في المستقبل القريب ·

في رسالتي المختصرة ــ هذه ــ اشكرك على هديتك الثمينة · وكلي أمل أن أقرأ لك في الايام المقبلة ما وعدت بنشره من نتاجك المخطوط ــ فأنت شاعر ــ وقد أثبت ذلك في ديوانك البكر (ضحايا) ·

الى الشاعرة الرقيقة ميسر العسلي ــ دمشق

عندما قرأت ديوانك (قلب واكليل شوك) عجبت لهذا القلب البريء كيف يوضع عليه أكليل من الشوك · لتتنزى دماؤه · وتسيل قانية على أهداب حلم جميل · مفعم بالرؤي العذبة · التي لم تتحقق ·

في كلماتك المنثورة ، سبحات خيال · وتهويمات عصافير · تنقل القارىء الى عالم من السحر والحب والصبابة والجمال · الى عالم القلوب العاشقة · عالم العاشق الذي يصبو ــ شوقا وحنينا ــ لان يتلاشى في ذات الحبيب ·

كلماتك المبرعمة بآلاف الازاهير هي بداية أولية في عالم الكلمة الحلوة ·

ولنا لقاءات أخرى مع كتابك الجديد في نتاجك المقبل · ولنا مواعيد مع كلمات تنبع من قلب يعرف كيف يصوغ الكلمة · ويبدع الصور والاحلام ·· مع حب ملون يحكي قصة الصبايا العاشقة في بلادنا التي تتلمس موجات النور · وشكرا على الهدية ·

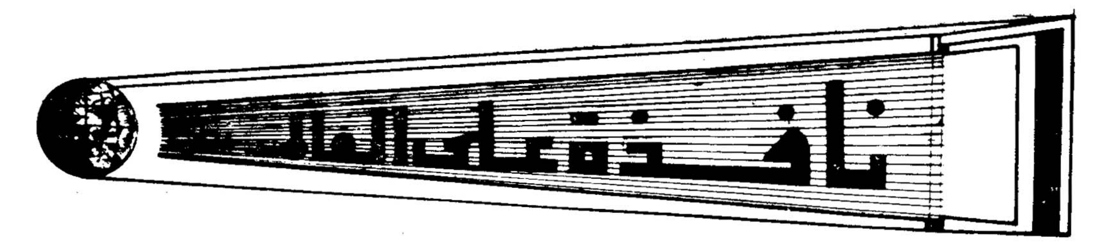
الى الشاعر الملهم ممدوح مولود ــ حلب

كلما ذكر شعراء الخمسينات ممن كتبوا عن الوطن الحبيبة · تذكرت كتاباتك ــ مبادىء من باريس · مرآة وريشة ونذير الامواج · وكلما طالعت مجلة من تلك المجلات التي كانت تصدر في ذلك العهد طالعتني قصائد الحب المجنحة · ولكم ساءلت نفسي ــ في هذه الايام ــ أين غاب نجم هذا الشاعر · ولم سكت البلبل عن التغريد؟ وأين اختفى ذلك الطائر الذي كان يملأ الدنيا غناء وتغريدا ·

أعدت قراءة ديوانك الذي أهديته الي · فحرك في أعماقي كوامن الوجد · والذكريات · وبعث في نفسي الحنين والشجى · ثم أعود لأتساءل لم فرض الشاعر ممدوح مولود العزلة على نفسه ؟ فسكت فيك العندليب المغني · وارتحل الى بلاد العتمة والظل ؟ !

أصدقاؤك يعرفون أنك شاعر · فلماذا لا تسمع المحافل الاندية أغانيك ؟ وتعيد ــ والعود أحمد ــ سيرتك الاولى · ما دمت تملك الموهبة وتجيد فن القول · ولك استطاعة على اثارة القلوب المحبة للشعر والكلمة الحلوة · والادب الرصين و ··

محمد قرانيا ــ أريحا



● تستعد الاوساط العلمية والادبية في سورية للاحتفلال بالمهرجان الالفي لابي نصر الفارابي ، في النصف الاول من تشرين الثاني ، وسيتولى المجلس الاعلى لرعاية العلوم والاداب ، رعاية هذا المهرجان ، وسيقوم وسيقوم بطباعة محاضراته ونصوصه ، في كتاب ٠

هذا وستنشر الثقافة أحاديث وافية عن الفارابي في أعدادها القادمة ٠

● أصدرت الزميلة مجلة « الموقف الادبي » عددا خاصا عن المسرح العربي ، نشرت فيه نصوصا مسرحية عربية وأجنبية مترجمة ، وهي تهدف من هذا العمل وضع نصوص أمام المسرحيين العرب ليختاروا منها ما يشاؤون ، وليثبتوا : أن الازمة ليست في أغلبها أزمة نصوص ، بل هي أزمة اختيار نصوص واختيار أسماء ٠

● كان العدد الاخير من مجلة « المعرفة » التي تصدرها وزارة الثقافة السورية ، عددا عاديا ، لعل أهم ما جاء فيه ذلك النقاش حول كتاب الدكتور زكي نجيب محمود « المعقول واللامعقول في تراثنا العربي » وذلك اللقاء الذي أجراه الاديب المصري مجاهد عبد المنعم مجاهد، وأهم ما دار في هذا الحديث ، عن الكتاب والحوار أيضا ، السؤال الذي يطرحه الدكتور زكي حول ما يصلح من تراثنا الماضي للعيش في عصرنا الحاضر بتعقيداته العصرية وتفرقته بين المعقول واللامعقول في التراث العربي ٠

● أصدر الاستاذ ياسر الفهد كتابه الجديد « مواقف مع الصحافة العربية » تحدث فيه عن المواطن العربي والقراء والمجلات في الوطن العربي والمجلات الجامعة والاختصاصية وغير تلك الموضوعات ، بحيث كان كتابه أحاديث عامة لا تخلو من دقائق يصيب فيها أحيانا ، ويخطىء أحيانا أخرى ، لا سيما في الثبت الذي أورده في نهاية الكتاب من أسماء مديري وسكرتيري الصحف والمجلات العربية ٠

● عن النادي العربي الفلسطيني في حلب ، صدرت مجلة دورية جديدة ، اسمها «المقاومة » ومن المعروف أن هذه المجلة ليست جديدة تماما ، فهي كانت تصدر منذ سنتين بشكل متقطع ، هذا والمجلة تحاول استقطاب عدد من الكتاب العرب والاجانب للكتابة فيها ، دون تحديد لجزئيات ما تطلبه منهم ، سوى الخط الفكري العام ٠

● « نقش على الانامل » مجموعة شعرية جديدة للشاعر الفلسطيني عبد الرحمن غنيم ، صدرت عن اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، والشاعر ملتزم بالقضية الفلسطينية ، وبالصراع مع العدو الصهيوني ، استعمل في قصائده خطابية مباشرة ، أساءت كثيرا الى شعره ٠ للشاعر مجموعة شعرية عنوانها « في ظل وادي الصمت » ظهرت له منذ زمن بعيد ، انصرف بعدها الى كتابة الدراسات عن الثورة الفلسطينية ، وعن الصراع بين الامة العربية وبين الصهيونية ٠

● للاديب الاردني « أسامة فوزي يوسف » ، صدر كتاب عنوانه « آراء نقدية » تناول فيه بعض القضايا الفكرية التي تشغل بال المفكرين الاردنيين ٠ تعرض لمسألة انتحار تيسير سبول الشاعر الموهوب ، وتقصى حالته النفسية في الايام التي سبقت انتحاره ، وتناول أيضا : قضايا الشعر الاردني المعاصر ، والمسرح والقصة القصيرة ، محاولا القاء الضوء على هذه الحركات الفكرية٠

● « العرب في المسرح قبل الاغريق » هو عنوان رسالة الدكتوراة التي تقدم بها الفنان الفلسطيني جمعة جمعة فلجة الى أكاديمية الفنون في لندن ، وقد اعتمد

الباحث على عدد من العناصر ، منها وجود كشف أثري في مدينة « لبدة ـ ليبية » يرجع عمره الى القرن الثالث قبل الميلاد .

● عن الدار المتحدة في بيروت ، صدر كتاب بعنوان « دراسات اسلامية » من تأليف سيد حسين نصر ، هو مجموعة بحوث متفرقة ، كتبت في الاصل باللغة الانكليزية، في مناسبات مختلفة، الا انها مترابطة لانها متصلة بالاسلام. تعرضت دراساته بصورة خاصة لنواحي ثلاث هي : الشرع والمجتمع ، العلوم الشرقية ، الفلسفة والتصوف .

● الدكتور ثروت عكاشة وزير الثقافة المصري الاسبق ، اشتهر بدراساته الفنية وأعماله الموسوعية ، نشر كتابه الجديد « موسوعة الموسيقي فاجنر » سرد فيه قصة حياة الموسيقي القيصري الالماني « ريشارد فاغنر » وحلل أبعاد شخصيته ، والجديد الذي أضافه الى التراث الفني ، والمجالات التي تدخل في مسارها ليرتفع نحو قمة المجد والشهرة والابداع .

● عرض كتاب « يوناردو دافنشي » الذي ألفه الدكتور جلال شوقي ، جانبا هاما من النشاط الفكري لفنان عصر النهضة الاوروبية ، العالم والمهندس «دافنشي» ذي الشخصية المتعددة الجوانب . هذا الفنان الذي رسم « العشاء الاخير » و « الجوكندا » قد طرق أبواب العلم والهندسة أيضا . كما تناول المؤلف حياة الفنان وعصره ، والظروف التي أحاطت به وأثرت في فكره ومنهجه .

« قلب الليل » آخر رواية للروائي المصري المعروف نجيب محفوظ ، وهي تتحدث عن انسانيين يلتقيان في مقهى ، ويتبادلان الحديث والذكريات ، منذ بداية الرواية حتى نهايتها ، على طريقة توارد الخواطر وتداعيها .

● صدر حديثا ضمن مطبوعات الجديد ، في القاهرة ، كتاب « يوميات أوروبية » لعبد المنعم سليم كاتب القصة المعروف ، وكتابه هذا ليس قصة عادية بل مذكرات رحلته الى أوروبا ، حيث يتحدث عن لوحة «الجيوكندة» لدافنشي الموجودة في متحف اللوفر في باريس، وعن زلزال (سكوبي) في يوغوسلافيا ، وعن المشعوذ الهندي (لو) .. وعن غير ذلك ! ..

● صدرت عن وزارة الاعلام العراقية مجموعة شعرية للشاعر العراقي خالد علي مصطفى عنوانها « البصرة ـ حيفا » وهي تتماوج بين النثر والشعر بأسلوب بسيط ، وبأوزان متعددة مختلطة ، فبدت بعض قصائده مرهفة تتفاوت من الجودة والانحدار ، فقسم مجموعته الى ثلاثة كتب هي « كتاب الخوف ، وكتاب العشق ، وكتاب الارض » ولكل كتاب لغته الخاصة به .

● صدر عدد جديد من مجلة « اللسان العربي » التي تصدرها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التابعة لجامعة الدول العربية ، وهذا العدد خاص بقرارات وتوصيات مؤتمر التعريب الثاني ، من أبحاث هذا العدد : (التراث العربي وعناصره الصالحة ، لرئيس تحرير المجلة الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله ، والقياس اللغوي للاستاذ ابراهيم انيس . ونقد للصور المقترحة في اصلاح اللغة الكتابية العربية للاستاذ مهدي الظالمي.. الى غير ذلك من الدراسات . هذا ، وسيكون الجزءان التاليان من هذه المجلة خاصين بتكملة الابحاث والدراسات التي نتجت عن مؤتمر التعريب الثاني الذي انعقد في الجزائر .

● توفي المؤرخ البريطاني « ارنولد توينبي » عن اثنين وثمانين عاما ، لقد سجل هذا المؤرخ مواقف هامة ومعادية للصهيونية في مؤلفاته ، وهو يعتبر أول مؤلف غربي انتصر للقضية الفلسطينية .

كان توينبي ذا نزعة انسانية ، يدعو الى تشكيل حكومة عالمية ، انطلاقا من اعتقاده بأن « هناك معتقد مهم مشترك بين كل الديانات ، وهو أن الانسان ليس الكائن الاعلى في الكون ، ومن هذا الفهم وحده ومن مفهوم الانسانية يستطيع الجنس البشري انقاذ نفسه من تدمير ذاته .